A.U.B. LIBRARY

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

A.U.B. LIBRARY

891.7308
Si 56 1 KA

AG 26'53
AG 26'53
ON
NO 4'53
OC 1 54
JA 8 55
DE 8
MR 29'56
AP 4 57

0 1 OCT 1993

J. Lib.
JAFET LIB

891.7309
S2541RA
C.1

محمد السباعي

قصص روسية

68837

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف
بمصر

دار المعارف
للطباعة والنشر

المحل الرئيسى بالقاهرة ٧٠ شارع الفجالة
فرع الاسكندرية ٢ ميدان محمد على
مكتب فلسطين وشرق الأردن شارع مأمن الله بالقدس
مكتب السودان شارع السردار بالخرطوم

تقـــديم

رحّبت كل الترحيب بالدعوة إلى تقديم هذه القصص التى نقلها إلى العربية من الأدب الروسى الزاخر بالقصص فقيد الأدب العربى الكبير الأستاذ محمد السباعى رحمه الله .

منذ توفى هذا الصديق النابغة ونحن نفكر فى قضاء حقه بشىء من الذكر والتأبين ، وكان صديقنا الأستاذ المازنى يوالى التفكير فى ذلك ويمهد له أسبابه . فعلم أن الوفاء للفقيد العزيز قد يوجب علينا إرجاء ذلك الجزاء الضئيل فى جانب فضله على أدب مصر الحديث وأدب العربية بأسرها ، وإنه وايم الحق لمن عجائب المقادير . إلا أنه ظن صادق وتقدير لا غبار عليه لأننا نحن أصدقاء السباعى والعارفين بشؤون أدبه وحياته كنا فى زمن من الأزمان معارضين أشداء المعارضة ، وكانت لأسرة الفقيد مطالب عند ولاة الأمر لعلهم لا يعطفون عليها كل العطف إذا قام المعارضون بتأبين عميد الأسرة الراحل والإشادة بفضله ، فمن الوفاء لذكرى الفقيد أن لا نهدف أسرته لما تخشاه ، وإن أسرفنا فى الظن والتقدير .

فرحبت بالدعوة إلى تقديم هذا الأثر القيم من آثاره الكثيرة ، لأنه يعود بنا إلى أوائل عهدنا بالكتابة فى الصحافة : إلى تلك الأيام التى كان

فيها رحمه الله يكتب فى « الجريدة » وكنت أكتب فى « الدستور » ، وكنا نتلاقى الحين بعد الحين لأسأله ويسألنى عما نقرأ وما ننوى أن نكتب وأستمع إلى طرائفه وفكاهاته التى يرتجلها ولا ينضب معينه منها . فنعمت العودة تلك العودة ونعمت الأيام هاتيك الأيام .

ومما أستبقيه من ذكريات ذلك العهد النضر أننى زرت حلوان — وكان يسكنها يومئذ — فسألت عنه فلم يعرفه أحد إلا حين وصفته لبعض الباعة « بأنه الرجل الذى يتأبط الكتب حيث سار » . فقال : نعم . نعم . عرفته . . ! وصحبنى إلى منزله فوجدته فيه ، ووجدت فى حجرة الاستقبال كتباً وعوداً وقانوناً موسيقياً ، وهو يوقع بعض الألحان ويناقش فيها بعض أبناء الصناعة . فقلت له : الآن أعرف سر غرامك بالإيقاع والجرس المقبول فى فواصل الكلام . فقال : إننى لا أتمنى شيئاً كما أتمنى ما يسميه الموسيقيون « إصبعاً حلوة » فى تناول القلم وتناول الريشة ، لأن تعبيرهم هذا « بالإصبع الحلوة » هو خير من تعبير البلغاء بنفس الشاعر أو الكاتب فى صوغ الأبيات وتنسيق العبارات .

وكان معى ديوان « هينى » الشاعر الألمانى الساخر ومجموعة من الحكايات لدستيفسكى الكاتب الروسى العظيم . فأخذ يقلب فيها لحظة وهو منقطع عن التحدث إلينا . . . فأما « هينى » فلم يبدُ لى فى تلك الجلسة أنه أعجب به كثيراً ، وأما دستيفسكى فقد وافقه وأرضاه ، وقال لى إنه يود لو نقل إلى العربية رواية من رواياته الكبيرة أو الصغيرة ، وإنه يعجب

أن يكون من هؤلاء الروسيين من ينبغ ذلك النبوغ ويجيد تلك الإجادة واستخلصت من كلامه أنه عنى بهذه الناحية الروسية من أدب أوربا فى أواسط القرن التاسع عشر ، ولكنه لا يريد أن يشغله هؤلاء الروس عن قراءة بيرون وديكنز ولى هنت وهازليت وكارليل ، وكانوا أحب أدباء الإنجليز إليه .

ودار فى خلدى أنه مشغول بهؤلاء الروس لا محالة يوما من الأيام مع ذاك ، لأنه يعيش فى عالم الخواطر والبدوات الذى يعيش فيه أبطال القصص الروسية ومؤلفوها . فإذا التقى بهم يوما فلن يكون اللقاء إلى فراق .

ولقد تلاقى السباعى وأكبر الأدباء الروسيين فى هذه الصحائف الحوافل بغرائب الشخوص وطرائف التحليل والتمثيل ، فلو كتبها مؤلفوها بالعربية لما بلغوا بها من الإجادة فوق مبلغ المترجم القدير ، لأنه نفذ من كلامهم إلى الروح وحفظ له بلاغة التعبير . وإن كان منهم من لم يتحر فى تعبيره فصاحة الأسلوب الأدبى الفحل الذى كان يتحراه رحمه الله .

وليست هذه المقدمة بالتى تتسع للوفاء بحق السباعى فى الأدب العربى الحديث على وجه الإسهاب والتفصيل ، فإنما يتسع لذلك كتاب شامل لعصره ولمكانه هو من عصره ، وهو فى أجل مكان .

ولكننا نجتزىء هنا بالإجمال الذى يدل قليله على الكثير ، فنضعه فى مكانه حيث نقول إنه كان طليعة المدرسة الأدبية الحديثة فى نهضة الأدب المصرى التى تجددت منذ أوائل القرن العشرين ، ونعنى بالمدرسة الحديثة

تلك المدرسة التى فتحت للشرقيين أبواب الثقافة الإنجليزية ووجهتهم إلى مقاييس تلك الثقافة النادرة بين الثقافات الإنسانية ، فلم يسبق السباعى أحد إلى التعريف بمزايا الشعر الإنجليزى ومحاسن المقالة الإنجليزية ، ولا سيما مقالات التصوير الخلقى والنقد الحصيف والسبحات الخيالية التى ترى على أحسنها فى كلام هازليت ولى هنت وكارليل ، وكل منهم مدرسة وحده فى عالم المنثور .

ولا ريب أن التعريف بهذه الثقافة كان اتجاهاً جديداً فى آداب الشرقيين ، لأن ثقافات البحر الأبيض المتوسط كانت من نوع الثقافة الشرقية أو من اتجاهها وكان عليها طابعها ولونها مع زيادة أو نقص هنا وهناك فى النصوع والإغراق . أما الثقافة الإنجليزية فهى اتجاه غير الاتجاه وطراز غير الطراز ، وفيها ما يجوز لنا أن نسميه بلقاح الدم الجديد ، وهو اللقاح النافع فى أطوار النهضة والتجديد .

ومما يذكر للسباعى بالحمد والإعجاب أن فتنته بالإنجليزية لم تفتنه عن جمال البلاغة العربية كما فتنت سواه من المترجمين عن تلك اللغة أو عن غيرها من اللغات الأوربية ، فكان حريصاً جد الحرص على متانة الأسلوب وفخولة اللفظ واستبقاء البلاغة الموروثة عن العربية الأولى ، وربما تسهل حيناً فتخلل مقاله بكلمة دارجة أو عبارة شائعة لأنه يضاهى بها ما يقابلها فى الكلام المنقول ، ولكنه فى أعم حالاته كان يؤثر التصرف فى الترجمة لمؤاتاة الجرس العربى والديباجة الشريفة ، وكانت كلمة « شرف

الديباجة » قداسته وفكاهته فى آن . . . فكانت قداسته لأنه يدين بها ويؤثرها على كل ما عداها ، وكانت فكاهته لأنه كثيراً ما كان يلهج بها فى مزاحه مع صديقنا الأديب المبين عبد الرحمن البرقوقى صاحب البيان رحمه الله . إذ كان السيد البرقوقى يرددها حتى سمى بها ، فلم يكن السباعى فى ندائه إياه يدعوه بغير « الشيخ شرف » حتى غلبت عليه !

ولو أن أديباً فى مكان أديبنا الكبير لهج بالثقافة الأوربية لكان وشيكا أن يجور على اللفظ العربى فى سبيل المعانى المحببة إليه ، فكذلك يفعل طلائع المدارس المقتبسة من الأمم الأخرى فى كثير من الأحوال ، ولكنه أنصف هواه الروحى وأنصف لسانه العربى وتراثه الشرقى القديم ، فإذا قرأ العربى هذه الصحائف فهو يفيد من لغة العرب كما يفيد من معانى فطاحل الروس المخلدين ، وهذه هى الترجمة التى تضيف إلى ثروة العقول وثروة اللغات ؟

عباس محمود العقاد

فهـــرس

صفحة

١٥ الزوجة ١
١٣ المغنية ١٤
١٢ مهزلة غرامية ٢٥
١٣ هواجس الظلام ٣٧
١٦ الرهان ٤٦
١١ كمنجة روتشيلد ٥٩
١٥ الصبيان ٧١
١٦ الانتقام ٨٤
١٥ الحلاق ٩٣
١١ الزوج ١٠٠
١٤ الوالد ١٠٩
ليلة هائلة ١٢١
الطفل الشحاذ فى عيد الميلاد ١٣٠
الأمير وابنه ١٣٩
حديث ليلة ١٥٣
الحانوتى ١٦٥
النزهة ١٧٦
الطبيب ١٨٩

الزوجـــة

للقصصى الروسى أنطون تشيكوف

قال الطبيب نيقولا لخادمته :

« لقد أمرتك أن لا تنظفى مكتبى ، فان تنظيفك كثيراً ما يذهب بأشياء قيمة ، أين الرسالة البرقية التى جاءتنى أمس من شقيقى ؟ أين رميت بها ! فتشى عنها » .

فبحثت الخادمة فى سلة الورق فأصابت بها بضع برقيات قدمتها إلى الطبيب ولكنه لم يجد بينها ضالته ، فبحثا معاً فى غرفة الجلوس ثم فى المكتبة ثم ذهب وحده ليبحث فى غرفة زوجته .

كانت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ، وقد علم نيقولا أن زوجته لم تكن لتعود قبل الساعة الخامسة صباحاً ، وكان لا يثق بها ، وينفر عنه النوم أثناء غيابها وينتابه الأرق والكرب والقلق .

وكان يحتقرها ويحتقر فراشها ومرآتها وصندوق حليها وزخارفها وعلبة أصباغها وطلاآتها ، وباقات الأزهار والرياحين التى كانت ترسل إليها كل آن من رجال شتى ، فكان فى أمثال هذه الليلة يعتريه السأم والضجر ويسوء خلقه وتهتاج أعصابه ويثور غضبه لأتفه الأمور ، ومن ثم فرط

اهتمامه لتلك البرقية على قلة قيمتها ، وعلمه أنها لا تحتوى شيئاً سوى التهنئة بالعام الجديد .

وألقى فى غرفة زوجته على المائدة وتحت علبة الأقلام رسالة برقية معنونة باسم حماته ومنها إلى زوجته ، ومن بلدة مونت كارلو وممضاة « ميشيل » ولم يفهم الطبيب منها حرفاً واحداً إذ كانت مكتوبة بالانكليزية .

« من هذا ميشيل ؟ ولماذا من مونت كارلو ؟ ولأى سبب أرسلت إلى أمها ؟ »

وكان فى خلال حياته الزوجية وهى سبعة أعوام قد تعود الشك والارتياب وسوء الظن والرجم بالغيب حتى خيل إليه أنه لو عين رئيساً للمخبرين السريين لصلح .

وعاد إلى غرفته وجعل يتفكر و يتدبر ، فتذكر أنه لما كان فى بطرسبرج منذ عام دعى هو وزوجته لمأدبة فى دار صديق له مهندس ، وقدم إليهما شاب يدعى ميشيل ايفانوفتش ، وأنه بعد هذا اليوم بشهرين أبصر صورة ذلك الفتى فى كراسة زوجته ، و بعد ذلك بمدة صادف هذا الشاب فى بيت حماته ، وأن فى هذا العهد أكثرت زوجته من التغيب عن البيت والبقاء خارجه حتى الساعة الرابعة والخامسة صباحاً ، وألحت عليه أن يستصدر لها جواز سفر إلى الخارج فأبى وأصر على إبائه وهاج الشغب بينهما من أجل ذلك ونشبت الحرب وحمى وطيسها فلم يكد يمر يوم دون

عراك ونزاع حتى أصبح لفرط خجله من الخدم لا يجرؤ أن ينظر فى وجه أحدهم .

وكان زملاؤه الأطباء قد قرروا قبل ذلك العهد بستة أشهر أنه مشرف على داء السل ونصحوا اليه أن يترك كل شىء ويذهب إلى بلاد القرم استشفاء ، ولما سمعت بذلك زوجته « أولغا » تظاهرت بالجزع الشديد .

— وما بها من جزع — وشرعت تتعطف عليه وتتحدب كذبا ورياء ثم أقبلت تفند فكرة السفر إلى بلاد القرم وتبطلها بدعوى أنها بلاد باردة مقفرة لا يصلح فيها عيش لأمثاله ولا تطيب حياة ، بل ربما كان فيها الشر والبلاء أجمع ، ونصحت إليه بالرحلة إلى بلدة نيس (المجاورة لمونت كارلو) مسهبة فى إطراء تلك البلدة مشيدة بمزاياها العديدة ومحاسنها الجمة ، ووعدته أن تصحبه فى رحلته لتقوم برعايته وتمريضه وخدمته وإيناسه على أحسن ما تقوم به زوجة لبعلها .

والآن أدرك الطبيب نيقولا معنى إلحاحها الشديد فى إغرائها إياه بالسفر إلى « نيس » وذلك أن صاحبها ميشيل كان يقيم فى مونت كارلو .

تناول نيقولا معجما انكليزيا وأخذ يبحث فيه عن معانى ألفاظ البرقية الواردة على زوجته من ميشيل حتى استخرج مرادفاتها بالروسية ثم ترجمها فاستخلص منها بعد الجهد الجهيد العبارة الآتية ، « إنى أشرب المدام على ذكرى حبيبة القلب وشقيقة الروح وأقبل قدمها الصغيرة الف مرة ، وأنتظر قدومها بفارغ الصبر » فصور لنفسه الدور الحقير الممقوت الذى كان يمثله بين

زوجته وعشيقها لو أنه طاوعها وسافر بها إلى نيس ، وأدمى الحزن قلبه وأنضج كبده الأسى ، حتى اغرورقت عيناه وأقبل يذرع فضاء البيت إقبالا و إدباراً وفؤاده من الكرب فى جحيم ، لقد طعن طعنة حمراء فى صميم عزته وكبريائه فقبض كلتا يديه بشدة وقطب خاجبيه وأرسل شرر الغضب من مقلتيه وجعل يتعجب لنفسه كيف وهو الرجل الطاهر النقى الشريف الأبى ، العزيز الحمى ، قد ملك زمامه وأسلم خطامه بيد تلك المرأة ، كيف قد أوقع نفسه فى أسر تلك الساقطة السافلة الخبيثة الفاجرة العاهرة الدنية .

وقال فى نفسه وعصر الورقة فى يده .

« قدمك الصغيرة ! ! أقبلها ألف مرة ! قدمك الصغيرة ! مرحى ! مرحى ! » .

تذكر عهده مع زوجته أثناء الزواج وما سبق ذلك من عهد الحب والصبابة فلم يلف فى ذاكرته من ذينك العهدين سوى شعرها العطر المسترسل وأثوابها الحريرية الملساء وقدميها اللطيفتين ، هذا كل ما بقى فى ذاكرته — اللهم إلا إذا حسبنا ما كان منها من التشنجات العصبية ، والبكاء والعويل والتوبيخات والتعنيفات والتهديدات والأكاذيب — الأكاذيب المقرونة بالغش والخداع والخيانة .

وتذكر أنه أيام عيشه فى دار أبيه بالريف كان ربما أبصر عصفوراً يفضى من الهواء الطلق إلى داخل الدار ثم يحاول الفرار فيقلب الأمتعة ويحطمها ، ويشوش نظام البيت ، وكذلك هذه المرأة التى هى من عنصر خلاف عنصره

و بيئة غير بيئته قد اقتحمت عليه حياته فشوشت نظامها وشوهت جمالها ، لقد قضى زهرة حياته وصفوة عمره فى نار جهنم ، لقد تقطعت أسباب أمله فى النعيم والسعادة وعادت هزأة وسخرة ، لقد انهدمت أركان عافيته ، وانتابت العلل والأمراض جسده ، وأصبح جو منزله وخيما و بيئاً قذراً كأجواء دور الفاجرات البغايا ، وأعجزه أن يقتصد من أرباحه المربية على عشرة آلاف روبيل فى العام عشرة روبيلات يساعد بها أمه المسكينة العجوز فى القرية وخيل إليه أنه لو ابتلى بعصابة لصوص تعيش فى داره لما أحدثت بها من الخراب نصف ما تحدثه هذه المرأة الطاغية العاتية .

و بدأ يسعل وقد تحرك عليه الداء العياء ، وكان من واجبه أن يرقد فى فراشه استدفاء ، ولكنه لم يستطع وتلك حاله من الكرب والقلق فاستمر يجول فى أنحاء غرفته ، وتارة يجلس إلى مكتبه فيتناول قلما و يعبث به على الورق فيكتب بلا تعقل أمثال هذه الألفاظ .

« أشرب المدام . . . قدمك الصغيرة . . . على ذكرى حبيبة القلب »

وفى الساعة الخامسة صباحاً خارت قواه ، وبدأ ينحى باللائمة على نفسه ، ويقول « أنا الذى جنيت على نفسى وعلى زوجتى كل هذا البلاء ، ولعلها لو كانت تزوجت رجلا غيرى أعرف منى بسياسة النساء ورياضة أخلاقهن لكان أحسن أدبها وهذبها وقوم اعوجاجها ، وسدد خطاها فى سبيل العفاف والشرف ، ولكنى جاهل بطباع المرأة وغرائزها وشهواتها ، مجرد من تلك المحاسن والمزايا التى تستهوى أفئدة النساء وتجذب قلوبهن ،

وفضلا عن ذلك فانى قليل البقاء فى هذه الدنيا ، بل أنى حرض هالك ، وما أنا إلا هامة اليوم أو غداً ، إنى رجل ميت ولا ينبغى أن أعترض فى سبيل الأحياء ، ومن العبث والحماقة أن أثور اليوم مطالباً بحقوق قبل هذه المرأة ، بل أولى لى أن ألقى حبلها على غاربها وأدعها شأنها فلتذهب فى رعاية الله فتتزوج الرجل الذى تحبه ، أجل ، سأطلقها وأحمل عبء الملام على عاتقى وحدى » .

وجاءت زوجته أولغا أخيراً ودخلت عليه غرفة المكتب وتساقطت على كرسى وهى لا تزال فى كامل ثيابها وحللها .

وقالت « بؤساً لذلك الغلام القذر السمين ، إنه لص مجرم » — ثم ضربت الأرض بقدمها — « لن أغضى على ذلك ، كلا لن أتجاوز عنه أبدا » .

فتقدم الزوج نحوها وقال « ما خطبك وماذا جرى عليك ؟ » .

« ذلك السافل الدنىء الطالب « بيكوف » كان يوصلنى عقب السهرة إلى ههنا ، ثم أدعى أنه أضاع محفظتى وفيها خمسة عشر رو بيلا ، وكنت قد اقترضتها من أمى » .

ثم شرعت تبكى وتنتحب ، كأنها طفلة صغيرة وقد بللت دموعها نحرها ومنديلها وقفازتيها .

قال الدكتور :

« وماذا أنت صانعة ؟ هذا حادث لا حيلة لك فيه ، إذا كان قد

أضاعها فلقد ضاعت ولن ترجع بحال ، ولا فائدة فى إزعاج خاطرك لأمر تافه كهذا ، هدئى روعك ، فانى محادثك فى أمر ذى بال » .

« لست بصاحبة بنك ولا ربة ملايين حتى أسكت عن ضياع مثل هذا المبلغ ، لقد وعدنى الخسيس أن يرده على ولكنى لا أصدقه ، إنه فقير جداً » .

فسألها زوجها إن تهدئ بالها وتصغى إليه ، ولكنها تمادت فى سب الطالب الخسيس وفى رثاء الخمسة عشر روبيلا والبكاء عليها .

فقال متضجرا .

« ويحك ، سأعيضك منها ثلاثين روبيلا غداة غد ، إن سكت وأصغيت إلى » .

فقالت وهى لا تزال تبكى .

« لا بد لى من نضو ملابسى ، فما أطيق المحادثة وأنا فى هذا الفرو السميك ! » .

فأعانها على نضو ثيابها وشم منها أثناء ذلك رائحة الشمبانيا ، — وكانت بالرغم من رقة بنيتها ونعمة بدنها ووهن أسرها وصورتها الملائكية ، منهومة بالطعام والشراب ، تحتسى المدام بشره وتتنقل عليه بكميات وافرة من المحار والجنبرى والعصافير ولحم الخنزير — ثم أنها ذهبت إلى غرفتها وعادت فى شف رقيق وقد طلت وجهها بالبياض (البودرة) وإن كان أثر الدموع لم يزل باديا على أجفانها ووجنتيها ، ثم جلست منكمشة فى ثوبها الخفيف المطرز

بالأزهار الحريرية ، حتى لم يبد منها لزوجها سوى شعرها العطر المسترسل وقدمها اللطيفة فى حذائها الرقيق .

وقالت وترجحت فى كرسيها الهزاز « ماذا تريد أن تحدثنى ؟ » .

قال وأعطاها الرسالة المعهودة :

« لقد عثرت على هذه » .

فقرأتها وهزت كتفيها ، وقالت :

« وماذا فيها ؟ ليس بها سوى تحية العام الجديد المتعارفة المعتادة ، ما بها من أسرار خطيرة » .

« أنت تتكلمين على اعتبار أنى لا أعرف الانكليزية ، وقد لا أعرفها ، ولكنى استعنت بالمعجم ، هذه البرقية من ميشيل ، إنه يشرب على ذكرى حبيبة قلبه وشقيقة روحه وأنه يقبل قدمك الصغيرة ألف مرة ، ولكن دعينا من هذا ، لا أريد أن ألومك ولا أن أحدث ضجة وأثير معركة ، فكفانا ما كان من ضجات ومعارك ، وقد آن أن نجعل لكل ذلك حدا ، فأنت من الآن حرة طليقة ، تعيشين كما تشائين وتذهبين إلى حيث تشائين » .

فترة سكوت ، ثم شرعت تبكى فى خفوت وسكينة .

وقال الدكتور :

« إنى أطلق سراحك ، حتى لا أضطرك إلى مؤونة صوغ الأكاذيب والخدع وانهاضها بالحجج والأدلة الباطلة ، وإذا كنت تحبين هذا الفتى ميشيل فاستمرى على حبه ، وإذا كنت ترغبين فى الرحلة إليه فافعلى ،

إنك غادة حسناء فتية ممتعة بكامل الصحة والعافية ، أما أنا فمضنى عليل ، نضو أسقام ، ونقض أشجان وآلام ، وقد قرب أجلى وانقضت مدتى ، وقصارى القول . . . أنت تفهمين غرضى » .

كان فى أقصى حالات الاضطراب والهياج ، ولم يستطع اتمام حديثه .

وأقرت أولغا — وهى تبكى بكاء العطف على نفسها والشكوى من ظلم الرجال — بأنها تحب ميشيل ولكن على الرغم منها وما أرادت ذلك ولكن الأقدار قضت به عليها ، وأنها كانت تخرج معه للنزهة وتوصله إلى داره ، وأنها تريد الآن فعلا أن تسافر إليه ، إلى أن قالت :

« قد ترى أنى لا أخفى عليك شيئا ولا أكتم عنك خبرا ، وأن ضميرى كله مبسوط أمامك كالصحيفة المقروءة ، والآن ابتهل إليك ضارعة أن تستصدر لى جواز السفر إلى الخارج » .

« إنى أكرر عليك أنك حرة طليقة » .

فانتقلت إلى مقعد آخر أدنى منه لتتفرس فى هيئة وجهه وتقرأ فيه خبايا ضميره ، وكانت لا تصدق مقالته وتريد أن تستبين حقيقة قصده وغرضه ، وكانت لا تصدق الرجال مطلقا وتسىء ظنا بهم مهما جمل ظاهرهم وعذبت ألفاظهم واحلوت وعودهم . ولما رنت إليه وعقدت بوجهه لحظها خيل إليه أنه يبصر فى عينها لمحة من ذلك الضياء الأخضر الذى يرى فى عين الهرة ، (دليل الحذر وسوء الظن والريبة) .

ثم قالت :

« متى أنال جواز السفر ؟ » .

فأراد مدفوعا بدافع شديد أن يقول لها .

« لن تناليه البتة » ولكنه كبح نفسه وقال .

« متى شئت » .

« لن أتغيب أكثر من شهر واحد » .

« كلا بل لتبقين مع حبيبك ميشيل أبد الآبدين ، سأحصل لك على أمر بالطلاق ، وأتحمل اللائمة وحدى من دونك ، وللفتى ميشيل أن يتزوجك إن شاء » .

فبادرت قائلة و بدت على محياها آية العجب والدهشة .

« ولكنى لا أريد طلاقا ، وما طلبت إليك طلاقا ، بل كل ما أبتغيه منك هو جواز بالسفر إلى الخارج » .

قال الدكتور وتحرك فيه الغضب والهياج .

« ولكن لم لا تريدين الطلاق ؟ إنك امرأة غريبة مدهشة ، ما أعجب أحوالك وما أدهش أطوارك ! إذا كنت حقاً تحبينه والحب بينكما متبادل فليس أمامكما سوى الزواج ، وهل تترددين لحظة بين طيب الزواج وخبث السفاح ؟ »

قالت وانثنت عنه مرتدة و بدت على وجهها آية البغض والغيظ والانتقام

« إنى أفهم غرضك ، إنى أفقه نيتك تماما ، أنت تكرهنى وتمقتنى وقد مللتنى وسئمت عشرتى ، وتريد أن ترغمنى على الطلاق إرغاما فتتخلص

منى ، فشكراً لك يا سيدى ، ولست من الحماقة والغباوة كما تحسبنى ، فأعلم أنى لا أقبل هذا الطلاق، ولن أفارقك ، كلا وألف كلا ، فأنا أولا لا أحب أن أخسر مركزى فى المجتمع » واستمرت فى حديثها بسرعة السيل المنحدر كأنها تخشى أن تقاطع « ثانياً قد بلغت من العمر سبعة وعشرين عاما وميشيل لم يعد الثالثة والعشرين ، ولو تزوجته لملنى بعد عام ونبذنى نبذ النواة ، وفوق كل ذلك لست واثقة من أن حبى له سيدوم طويلا . . . و بناء على ذلك لن أدعك ولن أفارقك » .

« إذن أطردك من دارى طرداً » قال ذلك بصوت شديد وضرب على الأرض بقدمه ، « أيتها الفاجرة الخبيثة القذرة المرذولة ! »

قالت وغادرت الغرفة .

« سوف نرى ! »

وكان الصباح قد أسفر وانتشر ضياؤه خارج الغرفة ، ولكن الطبيب مابرح جالساً إلى مكتبه يجيل قلمه على الورق ، ويكتب بلا وعى ولا شعور

« سيدى العزيز ، كيف حالك . . . . قدمك الصغيرة . . . . ألف قبلة . . . . »

وتارة كان ينهض من مكانه ويطوف فى أرجاء الغرفة ، ثم أنه وقف إزاء صورة كانت قد رسمت عقب زفافه على زوجته أولغا ، وهى تمثل أفراد أسرته : حماه وحماته وزوجته وهى فى العشرين من عمرها ، وتمثله واقفاً بينهم فى هيئة شاب فتى فرح بزوجته الحسناء يرفل فى

ابراد النعيم والسعادة ، وحموه كهل ضخم سمين صاحب حانوت منسوجات تلوح عليه دلائل المكر والخداع والجشع ، وحماته امرأة ضخمة بوجه كوجه ابن عرس (العرسة) دقيق الملامح ، وهى تحب ابنتها إلى درجة الجنون ، وتعاونها على قضاء جميع مآربها ، وتتستر عليها ، ولو شاءت الابنة أن تذبح إنسانا لما مانعتها ؛ بل لما ترددت أن تغطى بأذيالها على جريمتها ، — ثم صورة زوجته أولغا نفسها ، بوجهها الدقيق الملامح كوجه أمها وإن كان أدق وأحلى ، وأنطق معنى وأشد جرأة ، لم تكن عرسة كأمها ولكن ذئبة ، ثم صورته هو نفسه تمثل شابا ساذجا طاهر الذيل نقى الجيب برىء الساحة من كل إثم وعيب ، على ثغره ووجهه سنا ابتسامة غريرة صافية ، قد بلغ من سذاجته ونقاوة سريرته أنه جعل ينتظر الخير والرفاهية والسعادة من عصابة السوء — زمرة الوحوش الضارية — التى شاءت الأقدار أن تقذف به يد النحس فى وسطها وبين مخالبها .

وساءل نفسه ثانياً كيف قدر عليه وهو ذلك التقى النقى ابن القسيس الصالح المتدين وسليل بيت قد ضرب فى شرف الأرومة وكرم المحتد بأرسخ عرق وأوفر سهم — كيف قدر له وتلك حاله وحليته أن يخضع هذا الخضوع المزرى لسلطان تلك المرأة الخبيثة الشريرة الساقطة الحقيرة التى هى على الضد والنقيض منه شيمة وغريزة وخلقاً .

ولما لبس رداءه الساعة الحادية عشرة للذهاب إلى المستشفى أتاه الخادم فى غرفته .

قال الدكتور :

« ماذا تريد ؟ »

« قد استيقظت سيدتى وهى تطلب منك الثلاثين روبيلا التى وعدتها بالأمس بدلا من الذى فقدته » .

المغنيـــة

للقصصى الروسى أنطون تشيكوف

فى ظهيرة يوم قائظ كانت المغنية الحسناء « باشا » جالسة فى شرفة منزلها الصيفى هى وعاشقها « نيقولا بتروفتش كولباكوف » قد شرب زجاجة مترعة من أردأ أصناف النبيذ وكان الحر لافحاً قتالا فضاق صدره واشتد كربه ولبث هو وصاحبته على أشد حال من الضجر والتبرم ينتظران برد العشى ونسمة الأصيل ليخرجا للنزهة .

دق جرس الباب فجأة وكان كولباكوف عاريا من ردائه وحذائه فوثب من مجلسه ونظر إلى « باشا » حائراً مرتبكا .

وقالت المغنية :

لا تضطرب فما أحسبه إلا ساعى البريد أو إحدى فتياتى » .

ولـكن كولباكوف من باب الحذر والحيطة التقط ثيابه وهرع إلى الغرفة المجاورة وأسرعت « باشا » إلى الباب ففتحته ، فما راعها إلا طلعة امرأة مجهولة فى ريعان الشباب ونضرة الحسن والملاحة وفى زى السيدات النبيلات .

وكانت هذه السيدة الغريبة كاسفة اللون مبهورة الأنفاس كأنما كانت تصعد فى جبل وعر المرتقى .

قالت باشا :

« ما خطبك أيتها السيدة ؟ »

فلم تتكلم السيدة ولكنها تقدمت خطوة وأدارت بصرها فى أنحاء الحجرة ثم ترامت على مقعد كمن أعياها الكد أو المرض فما تطيق وقوفا ، ولبثت برهة طويلة تحرك شفتيها ابتغاء الكلام وما بها إلى الكلام من سبيل وما لها على النطق من قدرة .

وأخيراً قالت ورفعت إلى « باشا » عينين نجلاوين بأجفان محمرة مخضلة من أثر البكاء . « أزوجى ههنا ؟ »

فريعت « باشا » حتى خصرت من الرعب أطرافها وهمست قائلة :

« زوجك ؟ أى زوج ؟ »

وتولتها رعدة شملت عامة جسدها .

« زوجى نقولا بتروفتش كولباكوف ؟ »

« كل ..... لا ..... يا سيدتى ..... أنا ..... أنا ..... لا أعرف أزواجاً البتة » .

مرت دقيقة فى سكوت ، وأمرّت السيدة منديلها على شفتيها مرات عديدة وحبست أنفاسها لتكتم فرط اضطراب احشائها ، ووقفت « باشا » أمامها فاقدة الحركة كأنها نصب من الأنصاب ، وجعلت تنظر إليها عن أشد الدهش والفزع .

قالت السيدة السيدة وكان كلامها هذه المرة بصوت متين ثابت و بشىء من الابتسام المستنكر ،

« وكذلك تقولين إن زوجى ليس ههنا ؟ »

« أنا . . . . . أنا لا أدرى عمن تسألين » .

قالت السيدة :

« إنك لكريهة بغيضة دنسة خسيسة ساقطة » .

وصوبت إلى المغنية نظرة ملؤها البغض والحنق .

« نعم نعم . . . . إنك لسمجة قبيحة شنعاء وشد ما يسرنى أن أقول لك هذا فى وجهك » .

وأحست « باشا » أن منظرها لا بد أن يكون حقاً كريها مرذولا فى نظر تلك السيدة النبيلة ذات العينين النجلاوين المستطير فيهما شرر الغضب والحفيظة وذات الأنامل اللدنة الرقيقة التى كل ما فيها ينطق بشواهد النبل والشرف ودلائل الكرم والحسب ، وتولاها أشد الخجل من صورتها السوقية وسحنتها العامية ومن وجنتيها الغليظتين الحمراوين ومن نقرة من أثر الجدرى بأنفها ومن وشم فى ظاهر يدها .

وقالت السيدة :

« أين زوجى ؟ أنا لا أبالى حبة خردل أن يكون زوجى ههنا أو لا يكون ، ولكن الذى يهمنى ما أنفقه عليك من المال ، لقد اختلس ذلك المال من خزينة الدولة وإنهم ليبحثون عنه لاعتقاله وكل ذلك من جرائك »

وقامت السيدة واقبلت تجوب أنحاء الغرفة إقبالا وادباراً أشد ما تكون

اضطراباً وقلقاً ، وجعلت « باشا » تنظر إليها وقد تولاها من شدة الرعب ما حال بينها و بين أن تفهم كلام السيدة .

وقالت السيدة وزفرت زفرة حارة تنم عن أشد الكرب والحنق .

« سيقبضون عليه اليوم ، وكل هذا من أجلك أيتها السافلة الوضيعة ، أيتها الفاجرة الفاسقة العاهرة ! و إنى ضعيفة الحول والقوة . لا طاقة لى بدفع هذه الكارثة . . . . . أجل إنى عاجزة ضعيفة وأنت أشد منى قوة وحولا ، ولكن هنالك إله ينصفنى أنا وأولادى منك أيتها الباغية ! إنه بكل شىء بصير ، وعلى كل شىء قدير ، و إنه لشديد العقاب ، ولسوف يوفيك الجزاء على كل عبرة سفحتها وكل ليلة سهدتها ، وعندئذ تذكرين ما جنت يداك وتقولين يا ليتنى كنت ترابا ! . . . . »

فترة سكوت .

أقبلت السيدة تتمشى فى الغرفة تصك يداً بيد والمغنية « باشا » تنظر إليها شاخصة البصر سادرة الطرف دهشة حيرى لا تفهم شيئاً ولا تعى شيئاً لكنها تتوقع أمراً مخوفا وحادثا جللا .

ثم قالت وخنقتها العبرة فاجهشت بالبكاء .

« تالله ما أدرى عما تقولين شيئاً يا سيدتى » .

فصاحت السيدة وقذفتها بألحاظ مشتعلة .

« إنك لتكذبين ، و إنى مطلعة على الأمر برمته وعندى بكل شىء علم ،

ومازلت أعرفك منذ عهد بعيد ، وأعرف أن زوجى قضى أيام الشهر الأخير كلها معك ! » .

« نعم لقد فعل ، وماذا فى ذلك ، إن لى زواراً كثيرين ، ولكنى لا أضطر أحداً إلى زيارتى ، وزوجك حر طليق يجىء ويذهب متى شاء » « أقول لك أنهم قد افتقدوا أموالاً ، وإنه اختلسها من أجل امرأة خبيثة مثلك ، فهو من أجلك قد ارتكب جريمة » وهنا وقفت السيدة وواجهت « باشا » وقالت بصوت شديد حاسم « اسمعى أيتها المرأة ! قد تكونين سافلة ساقطة ، قد تكونين شريرة خبيثة ، قد لا يكون لك مأرب سوى سلب الناس ونهبهم ولكنى لا أحسب أنك قد تدهورت فى مهواة السقوط واللؤم إلى درك قد انمحى معه من صدرك كل عاطفة إنسانية وكل جذوة من الشعور الحى وكل ذرة من البر والخير ، فاعلمى أن صاحبك الذى أغريته باختلاس الأموال وارتكاب الجرائم له زوجة وأولاد . . . . . فإذا قضى عليه ونفى هلكنا جوعاً . . . . . أنا والأطفال . . . . . افهمى ذلك ! على أنه لا يزال ثمت فرصة لإنقاذه من السجن أو النفى ولإنقاذنا نحن من الخزى والعار ومن الذل والمسكنة والفاقة ولو أخذت الآن الألف روبيل لكفوا عنه وكفوه شرهم ، ألف روبيل فقط ! »

فقالت « باشا » بلطف ورقة .

« إيه ألف روبيل ؟ ما هـذه الألف روبيل ؟ أنا . . . . . أنا لا أعلم شيئاً من أمرها . . . . . وما أخذتها » .

« لاأسألك مالاً نقداً . . . . . فقد أعلم يقيناً أنه لا نقد عندك ولكنى أسألك شيئاً آخر . . . . . إن من عادة الرجال أن يقدموا لأمثالك من النساء نفائس التحف والهدايا ، لست أطلب إليك أكثر من أن تردى إلى ما أهداك زوجى من تلك الطرف والنفائس » .

قالت « باشا » تندب وتولول وقد بدأت تفهم الكلام .

« سيدتى ، الله يعلم أنه ما أهدانى قط شيئاً ! » .

« إذن فأين ما قد أتلف من الأموال ؟ لقد بدد ماله ومالى ومال الغير . . . . . أين ذهب كل هذا ؟ انصتى إلى ، إنى أضرع إليك وأبتهل ! لا يسوءنك ما بدر منى إليك من هجر القول وقوارص الكلم وأعزيه إلى ما تملكنى من الغضب فأطار عقلى وأطاح لبى ، وعلى كل حال فإنى أعتذر إليك من جناية لسانى ، قد أعلم أنك تبغضيننى ، ولكن إذا كان للرحمة والعطف والمواساة موضع فى قلبك فتصورى حالتى من الكرب والضيق واجعلى نفسك مكانى ! ولذا أضرع إليك وأبتهل أن تردى إلى ما كان أهداك زوجى من النفائس ! »

فهزت « باشا » كتفيها وقالت :

« يا للبلية ! تالله ما كنت لأضن عليك بشىء لو كان مما تزعمينه حقاً ولكن يشهد الله أنه ما قدم إلىّ قط هدية ، اللهم ألا شيئين تافهين وسأردهما إليك إن شئت » .

ثم سحبت درجاً من أدراج خزانة حليها وتناولت منه سواراً أجوف

فارغاً من الذهب وخاتماً دقيقاً بفص ضئيل من الياقوت .

وقالت وسلمتهما إلى السيدة .

« هاك سيدتى ! » .

فتوقد الغضب فى وجه السيدة وقالت :

« ماذا تقدمين إلىّ ؟ أنا لا أستجديك صدقة وإنما أطالبك بحق من حقوق ، وأسألك أن تردى ما ليس بملك لك . . . . . وما قد تذرعت بمركزك الاجتماعى الساقط إلى سلبه واغتصابه من زوجى ذلك الرجل الأحمق الضعيف الشقى البائس . . . . . إنك حينما صادفتك تتأبطين ذراع زوجى على الميناء يوم الخميس كنت تتقلدين عقداً ثميناً وأساور من ذهب ، فلا فائدة فى انكارك الآن ، وإنى أسألك المرة الأخيرة أراجعة أنت إلى تلك الهدايا أم لا ؟

قالت « باشا » و بلغ الغضب منها مبلغاً .

« ما أعجب شأنك وما أغرب حالك أيتها السيدة ، كونى على ثقة من أنه لم يصلنى من زوجك شىء خلاف ذلك السوار والخاتم ، وأنه لا يدخل علينا بشىء قط سوى الفطير والبقلاوة » .

فضحكت السيدة وقالت :

« الفطير والبقلاوة ! لله مزيد الحمد والثناء ! الأطفال فى البيت محرومون من الخبز بلا إدام وأنتم تطعمون الطيب الشهى من البقلاوة والفطير! هنيئاً مريئاً يا سيدتى ، وكذلك تأبين كل الإباء أن ترجعى الهدايا ؟ »

ولما لم تنل جواباً عن كلمتها الأخيرة جلست وأشخصت بصرها فى الفضاء تفكر .

ثم قالت :

« ماذا أصنع الآن ؟ إذا أنا لم أحصل على الألف روبيل فلأم زوجى الثكل ، ولى ولأولادى البؤس والفاقة وعلى الدنيا السلام ، وأرانى الآن بين أمرين ، فإما أن أقتل هذه المرأة ، وإما أن أخر راكعة تحت قدميها استعطافا واستجداء » .

ثم إن السيدة ضغطت على وجهها بمنديلها وشرعت تبكى وتنتحب . وقالت من خلال زفيرها وشهيقها .

« إنى أتوسل إليك ! قد ترين أنك سلبت زوجى وجردته وتركته شحاذاً يتكفف وأهدفته للسجن والنفى ، فنجيه وانقذيه ، وإن كان لا يعطفك عليه عاطفة من حنان أو رأفة فارحمى أطفاله الصغار وارثى لهم ورقى . . . وماذا جنى أولئك الصغار حتى يمسهم كل ذلك البؤس والبلاء »

فتخيلت « باشا » أطفالا صغاراً حفاة عراة واقفين على قارعة الطريق قد هزل الجوع أبدانهم وأشحب الظمأ ألوانهم يصيحون ويعولون وعز عليها ذلك فأجهشت بالبكاء وشرعت هى أيضاً تصيح وتعول :

وقالت من خلال دموعها .

« وماذا فى طاقتى أن أصنع يا سيدتى ؟ تزعمين أنى امرأة سافلة ساقطة وأنى أوقعت فى البلاء زوجك . . . وشهد الله أنى ما نالنى منه شىء قط ،

ونحن كلنا فقيرات لا نملك سوى قوت يومنا ، إلا فتاة من زمرتنا لها عاشق غنى ، وسائرنا لا نصيب له من طيبات هذه الحياة سوى الزاد والملبس ، وقد آنست فى زوجك أدبا ورقة وظرفا فما وسعنى إلا أن أرحب به ، ونحن بحكم الضرورة مجبرات على الترحيب بالناس »

إنى أطلب إليك الهدايا ! اعطينى الهدايا ! ألا ترينى أبكى وأنتحب... ألا ترينى قد أذللت نفسى وأذللتها ؟ وإن شئت لأخرن راكعة تحت قدميك ! »

فصرخت « باشا » من شدة الجزع ، وقد خشيت أن تركع هذه السيدة الجليلة النبيلة فعلا تحت قدميها وفى ذلك أشد الإهانة والإذلال لها (أعنى للمغنية « باشا ») والتحقير والسخرية منها .

وقالت « باشا » ومسحت بقايا الدمع من مقلتيها وعمدت إلى خزانتها

« لا بأس ، لا بأس ! سأعطيك أشياء ، بكل ارتياح وانشراح ! ولكن ثقى إنها لم تأتنى من زوجك ، فليكن كما تشائين وتشتهين . . . »

وسحبت « باشا » الدرج الأعلى وتناولت صليباً من الماس وعقداً من المرجان ، و بضعة خواتم وأساور وقدمتها إلى السيدة .

« خذى هذه إن شئت ، ولكن أيقنى أنها لم تكن منحة من زوجك خذيها وأثرى وتمولى واستغنى ، وإن كنت سيدة شريفة نبيلة وكنت حقاً زوجته الشرعية فاحتفظى به لنفسك ولا تطلقيه على عباد الله يغشى منازلهم

العامرة بالخراب ويحل عليهم بالكرب والغم والشقاء فوالله ما دعوته إلى داري ولكنه جاء من تلقاء نفسه » .

تصفحت السيدة هذه الحلى من خلال مدامعها وقالت :

« ليس هذا كلها ، هذا لا يساوى أكثر من ستمائة روبيل »

فقذفت « باشا » من الدرج بساعة ذهبية وسلسلة وعلبة سجاير من الذهب أيضاً وأزرار من الياقوت والماس والزبرجد ثم قذفت بذراعيها فى الهواء ونفضت يديها وقالت :

« هذا كل ما عندى ولك أن تفتشى دارى ! »

فتنهدت السيدة ولفت الحلى فى منديلها بيدين راجفتين وخرجت دون أن تفوه ببنت شفة ودون أن تسلم على « باشا » ولو بإيماءة من رأسها

انفتح باب الغرفة المجاورة ودخل كولباكوف وكان شاحب الوجه مضطرب الأوصال يرتعش من فرعه إلى قدمه كأنما قد تجرع علقما ، وعيناه مغرورقتان .

واستطالت عليه « باشا » صائحة .

« خبرنى عن تلك الهدايا التى أهديتنى؟ أية هدايا هذه؟ ومتى كانت؟ »

قال كولباكوف :

« دعينا من هذا ، ولكن خبرينى من أنت حتى تقف أمامك هذه السيدة الشريفة ذليلة خاشعة ؟ إله العرش ! لقد بكت أمامك ! لقد أذلت نفسها لك ! »

« إنى أسألك عن الهدايا ، ما هى تلك الهدايا ومتى قدمتها ؟ »

« إله العرش ! تلك السيدة النبيلة المحجبة المصونة ربيبة العز والنعم وسلالة المجد والحسب لقد أوشكت أن تخر راكعة ولمن ؟ لسافلة وضيعة مثلك ! وأنا الذى جنيت هذا عليها ، ولقد أجزته وسمحت به ، يالله ! يالله !

ثم صك جبينه ندامة وأخذ يئن كأنين الثكلى .

« على رأسى هذا الإثم المنكر ، لا والله لن أغتفر لنفسى هذه الجناية تنحى عنى أيتها الساقطة ! » .

وارتد عن المغنية كما لو كانت أفعى ، وصدها عنه بكلتا يديه « لقد همت أن تخر راكعة ولمن ؟ . . . لك أنت ! يا ويلاه ويا مصيبتاه ! لطفك اللهم ورحمتك ؟ » .

ثم ارتدى ثيابه على عجل ودفع بيديه فى صدر المرأة وانطلق مسرعا .

وترامت « باشا » على أريكة وأعلنت البكاء والنحيب آسفة على حليلها التى قذفت بها إلى السيدة عن طيش وتهور وبلا أدنى روية ولا تبصر ثم تذكرت أنه منذ ثلاثة أعوام كان لها صاحب من التجار وأنه ثار عليها ليلة بلا أدنى علة فأوسعها ضربا موجعاً مبرحا فآلمتها هذه الذكرى الفجائية فضاعفت البكاء والعويل حتى كاد فؤادها ينفطر .

مهزلة غرامية

للقصصى الروسى الأشهر أنطون تشيكوف

كان « بافيل ايفانتش » الرجل المتزوج يقضى أشهر أجازته الصيفية فى منزل مختار ببعض المتنزهات الخلوية ، مع أسرته ، فجاءه البريد ذات يوم بالرسالة الآتية :

« إنى أحبك ، و إنك حياتى ومصدر هناوتى وسعادتى ، اغفر لى خطيئة تصريحى هذا وافسح لى مجال العذر ، فلقد أعيانى والله كتمان ما بى ، ومن يحمل فى هواك ثقل ما أحمله لم يطق صبراً ولا سكوتاً ، ولا أسومك أن تجزى غرامى بمثله ، وحسبى منك الرثاء والرحمة ، وأن تعطفت بلقائى الساعة الثامنة من مساء هذا اليوم بالمقصورة الواقعة بأقصى حديقة المتنزة أثلجت منى كبداً أنضجها الشغف ، وتلافيت مهجة أشفت على الهلاك والتلف .

ولا حاجة لأن أذكر اسمى الآن ، وكفاك أن تعرف أنى فتاة حديثة السن قد أوتيت حظاً من الحسن والملاحة ، وماذا تريد فوق ذلك ؟ »

ولما تلا «بافيل إيفانتش» هذه الرسالة وهو متكىء على « كنبة» فى حجرته هز كتفه تعجباً ، ومسح بيده على جبينه حيرة وارتباكا ، وقال فى نفسه .

وما هذه البلية الجديدة ؟ وماذا عسى يكون تحت هذه الرسالة من خبايا

الأقدار وكوارث المحن ؟ أو لم تدر التى بعثت إلىّ بهذا أنى رجل متزوج سفه منها ذلك والله وحماقة ، ومن ترى تكون هذه الغادة ؟ »

وجعل الرجل يقلب الكتاب فى يديه ويتلوه عوداً على بدء ، ثم نبذه جانباً .

وقال يناجى نفسه ساخراً متهكما :

« إنى أحبك ، وإنك حياتى ، ومصدر هناوتى وسعادتى » بهذا الغزل الرقيق تخاطبنى الفتاة المجهولة ، مرحى لك أيتها الغادة ؛ لقد أحسنت الاختيار إذ وقعت على رجل كهل متزوج قد جاوز الأربعين واشتعل المشيب فى فودية وقذالة ، وكذلك تريدين أن أوافيك بمقصورة المنتزة على أن أنجى مطية من الهيام والصبابة .

ألا رب يوم لو رمتنى رميتها ولكن عهدى بالنضال قديم

وما أنا والغرام وقد ذهبت سكرة الهوى وعريت رواحل الصبا ، على رسلك أيتها الفتاة ! ما أحسبها إلا بعض أولئك الفاجرات اللائى لا يزلن ينصبن للرجال حبائل غوايتهن ، تباً للنساء لا يكاد يسلم امرؤ من شباك كيدهن ! »

وعلى الرغم من كل هذه التصريحات كانت الرسالة قد أثرت فى الرجل أشد تأثير وزلزلت أركان نفسه زلزالا .

فلو أطلعت عليه بعد نصف ساعة لألفيته غرقاً فى أعمق لجة من التفكير تنتهبه الهواجس من كل ناحية .

قال فى نفسه :

« بديهى أنى لست من قبيل أولئك الشبان الأغرار الطائشين ؛ وما كنت لا تأثر بتلك الكلمات السخيفة من هذه الفتاة ، ومن المحال أن أطيعها فأذهب للقائها ، ولكن أرانى متشوقاً لاستطلاع ما هنالك ، والوقوف على جلية الخبر » .

كل ذلك والرسالة فى يده يقلبها و يتفرس فيها .

« لا شك أنه خط انثى ، فهذه الأحرف الدقيقة ما كانت لتصدر عن أنامل الذكر ، إن هذا وما يكمن فى مطاوى الرسالة وما يلوح خلال سطورها من آيات العطف والرقة والحنان ليس مما تفيض به أفئدة الرجال ، لا شك أنه كلام امرأة ، فمن ترى تكون تلك الغادة ؟ »

والذى زاد الأمر غموضاً وخفاء أن صاحبنا « بافيل إيفانتش » لم يكن يعرف أحداً قط من نساء تلك الناحية — لا من أهلها الأصليين ولا من غاشيتها ،

وعاد إلى مناجاة نفسه ، قال :

« عجباً ! عجباً ! إنى أحبك ، و إنك حياتى ومصدر هناوتى وسعادتى ! ولكن قاتلها الله متى تمكنت من الوقوع فى حبى ، وكيف استطاعت أن تتدهور فى حبى إلى أعماق هذه الهاوية السحيقة ولما يمض لى فى هذه البقعة سوى أيام قلائل ؟ ما أعجب حال هذه الفتاة وما أغرب شأنها ، تقع فى حبى بلا أدنى مناسبة ، و بدون أن تتعرف بى فترى أى رجل أنا ، إن

فتاة تهيم بى غراماً على أثر نظرة أو نظرتين فى وجهى لفتا
غريرة بلهاء خيالية إلى النهاية القصوى ، ولكن من ترى تكو
هذه الغادة ؟ » .

وهنا تذكر بغتة أنه بينما كان يتمشى بالحديقة منذ يومين أبصر ف
حسناء ذات قلنسوة زرقاء وأنف قصير وأنها جعلت تنظر إليه طويلاً و
جلس جلست على مقعد بإزائه .

فقال فى نفسه :

« أيمكن أن تكون هذه الفتاة صاحبة الرسالة ؟ كلا ! ذلك محال
وهل يخطر على بال أن غانية بديعة الحسن كهذه تهيم وجداً بكهل متح
مثلى قد أكل عليه الدهر وشرب ولها فى حسان الفتيان من كل أهيف
ممشوق القوام يرنح الصبا عطفيه ويجول فى ديباجتيه ماء الشباب مندوحة
كلا ! ذلك محال » .

ولما جلس لتناول الغداء جعل ينظر نحو زوجته شاخص البصر سام
الطرف تتنازعه الوساوس وذهنه مشغول بأمثال هذه النجوى .

« تقول فى الرسالة إنها حديثة السن حسناء وكذلك قد أحبتنى وهام
بى فتاة جميلة ولم لا يكون ذلك ؟ وماذا يمنع من حصوله ؟ وأى غرابة فيه
ما أرانى من الكبر وقبح المنظر بحيث لا تعشقنى الحسان ، وأى عيب
رجل ضخم طويل عريض أحمر الوجه مستديره ممتلئه أيد متين شد
القوة ، ماذا تريد الفتيات أكثر من ذلك ؟ وهبنى قبيحاً جافى الطب

أليس الحب أعمى ؟ وفضلا عن كل ذلك أليست زوجتى تحبنى ، وإنها لمن الحسان بشهادة كل الناس ؟ »

قالت له امرأته وآنست شرود ذهنه :

« مالى أراك عازب اللب وفيم تفكر ؟ »

« لا شيء ، أشعر بدوار فى رأسى » .

وعلم الله أنه كاذب .

وعزم أخيراً على أن لا يعلق على تلك الرسالة الغرامية أدنى أهمية وعلى أن لا يعيرها أقل التفاتة .

— ولكن ما أعظم قدرة الشيطان وما أشد غلبته على النفوس !

ذهب « بافيل إيفانتش » بعد الغداء إلى سريره ولكنه بدلا من أن ينام كعادته أخذ يفكر .

« ولكن أظنها الآن تنتظرنى ، مسكينة تلك الصبية البلهاء ! لأ كاد والله أتصور الآن فرط جزعها وكربتها حين تدخل المقصورة فلا تجدنى ، ولكنى لن أذهب على الرغم من ذلك ، فلتحزن الفتاة ولتنفلق ! »

ولكنى أقول مردداً سالف قولى « ما أعظم قدرة الشيطان وما أشد غلبته على النفوس ! »

بهذه الكلمات الآتية كان يناجى نفسه بعد نصف ساعة .

« ولكن ماذا علىّ لو أذهب — من باب الفكاهة فقط — فانظر من مسافة بعيدة إلى الفتاة وأرى ماذا يكون من أمرها ، من باب اللهو

والفكاهة ليس إلا ، لا أبغى سوى الضحك ومالى لا ألعب وأضحك وقد سنحت بذلك الفرصة » .

وكذلك نهض « بافيل ايفانتش » من فراشه وشرع يرتدى ثيابه .

ولحظت زوجته أنه يلبس قميصاً نظيفاً و « بمباغاً » من أحدث طراز فقالت :

« لأى شىء كل هذا التجمل والتزين يا بافيل ؟ »

« لا لشىء مطلقاً ، وإنما أريد الخروج للرياضة ، فقد اشتد بى الصداع » .

ارتدى « بافيل » أفخر ثيابه وانتظر إلى الساعة السابعة والنصف ، ثم غادر المنزل إلى الحديقة ، ولما رأى الفتيات يتمشين خلال الأشجار فى أبهج الحلى والحلل خفق قلبه وساءل نفسه « ترى أيهن تكون صاحبتى ؟ ما لقلبى يخفق وما لقدمى تزلان وما لى خائر القوة لا أكاد أنبعث ، ما أغباك وما أسخفك يا « بافيل » شمر وتقدم وشد للأمر حيزومك يا غبى ، وأمض قدما لا أبالك ! وماذا عليك لو دخلت المقصورة ؟ ولكن تمهل قليلا » .

واشتد خفقان قلبه وتخيل مقصورة الأشجار المحجوبة عن الأبصار بسرادق الورق الأخضر — تخيل جوف تلك المقصورة وظله الكثيف المظلم وتمثلت لعين خياله فتاة رشيقة معشوقة الدلال ، معبودة الجمال ، نعم أبصرها بعين الوهم ينشرها الدل ويطويها الحياء قد التقت نشوة شبابها

بنشوة تيهها فكادت من اللين تعقد ، أبصرها تتقدم إليه منكسة الجيد خفاقة الإحشاء تمد إليه ذراعين عبلتين لتعانقه .

« تباً للزواج ولسلاسله وأغلاله ؟ لعن الله الزواج ويوم كبلت بقيوده وأصفاده ! لو كنت أعزب خلا لى الجو وطابت لى الحياة ، ورقت حواشى العيش واخضر عوده ، ولكن لا ضير على — وأنا مثقل بأعباء الزواج — من اغتنام الفرصة وقد سنحت ، ومن قال أن المتزوج حرام عليه أن يلهو وينعم ؟ أليس للمتزوج شعور وإحساس وشهوات وعواطف ؟ وهل المتزوج صخرة صماء بلا فؤاد ولا كبد ؟ وإذا كان المقرر فى الأذهان والراسخ فى العقائد أن المتزوج عان أسير وأنه من حياته الزوجية فى قيد محكم الحلقات وسجن حالك الظلمات فمن ترى أحق منه بانتهاز فرص الحظ واختلاس فلتات السعادة ؟

إن من ساءه الزمان بشىء . لا حق امرىء بأن يتسلى

ثم لا تنس أن هذه أول مرة فى حياتى طرأ على فيها ذلك الحادث الفذ النادر — أول مرة بزغ لى فى أفق الحياة كوكب الحب مشرقاً متألقاً ، — أول مرة انفسح أمامى وادى الغرام والصبابة مونقة جنانه ، مورقة أفنانه ، هتافة بلابله ، هتانة جداوله ، — أول مرة مدت إلى شجرة الحب المقدسة أيدى غصونها تتفتح أكمامها عن أطيب ثمرات الحياة — أول مرة طاف على ساقى النعيم بأعذب كؤوس العيش — أأضيع الفرصة ؟ أأترك أحلى ثمرة فى الحياة دون أن أذوقها ؟ أأدع الذ كأس فى الوجود فلا أرشف منه رشفة واحدة ؟ وهبنى أضعت هذه الفرصة فمن لى بأن تعود ثانية ؟ من

ضمينى بعودة ظهور ذلك الكوكب الوضاء فى ظلمات عيشتى الحالكة ؟ من كفيلى أن أشيم تلك البارقة قبل مماتى ؟ أأموت ولم أر ملك الحب المقدس ولم ألمس أجنحته الشفافة الندية ؟ أأموت ولم أر آلهة الحب ولم أذق من حياضها الكوثرية المنّ والسلوى ؟ أأموت دون أن أفك ذاك اللغز وأحل ذلك الطلسم وأعرف سر الوجود الأعظم — الحب ! » .

ولج « بافيل إيفانتش » مدخل المقصورة المحفوفة بالأشجار من كل جانب يلفها سرادق منسوج من الأغصان والعيدان والألياف فوجد لبرد نداها روحاً على كبده . وأجال فى أرجائها نظرة فلمح بأقصاها شبح رجل ودقق النظر فأبصر فى ذلك الرجل صهره « متى » أخا زوجته وكان طالباً بالمدارس العليا .

فدمدم « بافيل » متسخطاً « ها ! أنت هنا ! »

ثم جلس

قال « متى »

« أجل ها أنا ذا » مضت دقيقتان فى سكوت تام .

ثم بدأ « متى » الكلام قال :

« معذرة يا صديقى « بافيل » ، اسمح لى أن أسالك الانصراف من ههنا ، فأنى مكلف من لجنة الامتحان أن أحرر موضوع إنشاء لأنال به « الدكتوراه » وأنا الآن مشغول بالتفكير فى ذلك ، ووجود أى إنسان بجانبى يعطلنى ويعوقنى » .

قال « بافيل » وقد استشاط غضبا .

« فى سبيل الشيطان لجنة امتحانك وموضوعك و إنشاؤك ودكتوراك وسائر شهاداتك ، اذهب أنت فى ألف داهية ! الله لا يرجعك » .

« إنما أنت بالذهاب أولى ، فأنا هنا من قبلك » .

« إن كنت حقا تريد التفكير والتأمل فأولى لك أن تترك هذا المكان المظلم إلى الضياء ، والهواء الطلق ، أما أنا فأريد النوم وقد غادرت الدار هربا من حرها ، وهذه المقصورة أجلب للنوم وأدر لأندائه الرطبة اللينة ، فاتركها لى بورك فيك » .

قال « متى » .

« أنت تريد النوم ولكنى أريد الدكتوراه وأيهما فى نظرك أهم وأخطر؟» .

فترة سكوت أخرى .

وكان « بافيل » قد أرخى لنفسه عنان الآمال والأمانى ، وذهب من التصورات والتخيلات الغرامية كل مذهب ، فثار بغتة وأقبل على صهره وقال :

« اصنع معى معروفا ! أنت أصغر منى سناً ومقاما ، وخليق بك أن تنزلنى منك منزلة الوالد ، أشفق على وترفق بى ، فإنى عليل و بأشد حاجة إلى النوم ، انصرف بارك الله فيك وعليك ! » .

« هذه الأنانية بعينها ! لماذا تبقى هنا أنت ولا أبقى أنا ؟ لقد عقدت النية على البقاء رضيت أم لم ترض » .

« اسمع منى ، هبنى أنانيا ، طاغيا مستبدا ، وأحمق معتوهاً سفيهاً ، ولـكنى أسألك ضارعا مبتهلا وما أسألك إلا تافها جداً ، فأكرمنى أكرم الله مثواك ولا تردنى خائبا » .

فهز « متى » رأسه إباء ورفضاً .

وقال « بافيل » فى نفسه « أى حيوان هذا ! ما أظن أنه يقيم ههنا على موعد من حبيبة ، إنه أجفى طبيعة وأغلظ كبدا من ذلك » .

ثم جهر بالقول :

« أسألك آخر مرة ، أظهر من مكارم الأخلاق ورقة الحاشية ما يليق بأمثالك » .

فهز « متى » كتفيه قائلا :

« أرح نفسك وأعرض عن هذا ، فلقد عزمت ولن أرجع فى عزمى ، لن أغادر المـكان الساعة » .

فى تلك اللحظة لاح من خلال سياج المقصورة وجه امرأة ، وما كاد يظهر حتى اختفى .

فقال : « بافيل » فى نفسه ورمى جليسه بنظرة يتطاير فى لحظها شرر الغضب .

« لقد ذهبت ، لقد أبصرت ذلك الفظ الجافى الغليظ ، فهربت من سحنته ، لقد انقطع متن الرجاء ، وانهدمت صروح الأمل ! »

وبعد فترة نهض « بافيل » ولبس قلنسوته وأقبل على صهره فحياه بهذه الألفاظ العذبة الرقيقة .

« أنت حمار وكلب وخنزير ، والأم الناس طبعاً وأخسهم نفساً وأقذرهم روحاً وأسقطهم همة وأشدهم إجراماً ، هذا فراق بينى و بينك » .

قال : « متى » ونهض من مكانه ولبس قلنسوته أيضاً .

« يسرنى أن أسمع منك ذلك ، ولتعلمن أنك قد حرمتنى بوجودك ههنا الساعة أشهى متعة فى الحياة وأكبر لذة ولن أغفرها لك ماحييت » !

غادر بافيل الحديقة ، يكاد يتميز من الغيظ وجعل يقول وهو مسرع إلى داره :

« تسنح لى فرصة النعيم والسعادة المرة الأولى والأخيرة فى حياتى ويضيعها على ذلك الوغد الخسيس ، لقد غضبت الفتاة وما أراها عائدة إلى أبد الآبدين ! أصاب الله المجرم الأثيم من جنى على هذا الشقاء بسم يقطع أمعاءه أو قطار يحطم عظامه و يفرى أحشاءه ! » .

***

وعلى مائدة العشاء جعل الخصمان :

يتقاذفان بأعين مشبوبة فى لحظها جمر الغضا المتوقد

وكلاهما صامت واجم .

وصاح « بافيل » بزوجته وهى تبتسم .

« فيم ابتسامك هذا ، ما ضحك بلا سبب إلا أبله سفيه معتوه ! » .

فنظرت الزوجة فى وجه بعلها الملتهب غضباً وأرسلت ضحكة دوى برنينها أرجاء المكان وقالت :

« ما تلك الرسالة التى وردت عليك اليوم ؟ » .

« الرسالة ! أية رسالة ؟ لم تأتنى اليوم رسائل ، إنك تلفقين وتخترعين » .

قال ذلك مضطرباً ملجلج اللسان إذ كان قد فوجىء على غرة .

« لافائدة فى الإنكار اعترف بما كان ، ألا تدرى أنى أنا التى بعثت اليك بتلك الرسالة » .

فاحمر وجهه خجلا ، وأطرق ينقر بالملعقة على صحفة الأرز وقال ولم يستطع النظر إلى زوجته :

« ما هذا المزاح الثقيل ؟ »

— لقد وجدتنى مضطرة اليه بحكم الظروف ، لقد أردنا اليوم أن نكنس ونمسح وننفض وعلمت أن ليس فى قدرتى إخراجك من البيت بأية وسيلة لفرط كسلك وتقاعدك ، فألهمنى الله تلك الحيلة وقد أفلحت ، على أنى خفت عليك مضض الوحشة لوحدتك فأتحفت أخى بصورة من تلك الرسالة ليكون لك سميراً ومؤنساً تحت ظلال المقصورة ، ومع تلطفاتى هذه وتعطفاتى أراك تحزن وتغضب .

ما هكذا يكون شكر الجميل يا رجل .

هواجس الظـــلام

للقصصى الروسى أنتون تشيكوف

قدم « ديمترى فاكسين » المهندس المعمارى من المدينة إلى منزله بالريف لقضاء العطلة الصيفية ، وكان مشحون الرأس بأحاديث طائفة الروحانيين ونظرياتهم ومذاهبهم مشغول الذهن بكثرة ما شاهد من تجاربهم وما سمع من أقاصيصهم ونوادرهم كحكاية الميت الذى رؤى يتقلب فى نعشه والدفين الذى صدع القبر وخرج منه بأكفانه — إلى غير ذلك من الروايات المزعجة ، وكان مما اتفق له فى بعض تلك الجلسات أن سيدة استحضرت له روح عمه المتوفى وأنه ألقى على ذلك الروح سؤالا :

« هل آن لى أن أنقل إلى زوجتى ملكية دارى ؟ » .

فأجاب الروح .

« لكل شىء أوان لا يصلح إلا فيه » .

هذه الوساوس وأمثالها كانت تتابع على خاطر الرجل وهو يخلع ثيابه ويتهيأ للرقاد فى فراشه الخالى (كانت زوجته قد ذهبت إلى الكنيسة ولم تكن لتعود قبل الصباح) .

قال فى نفسه وقد اضطجع على فراشه وتغطى باللحاف .

« إن الطبيعة مملوءة بالأسرار الرائعة والألغاز المخوفة ، ولسنا نخاف الموتى ، إنما خوفنا من تلك الأسرار المجهولة » .

دقت الساعة الواحدة وتقلب « فاكسين » على فراشه ، وأطل من تحت اللحاف إلى المصباح المنصوب إزاء تمثال العذراء يرسل نوره الأزرق الضئيل على صورة معلقة حيال فراشه تمثل عمه المتوفى الآنف الذكر .

وخطرت فجأة على ذهنه هذه الخاطرة « وماذا يكون لو ظهر لى خيال عمى « كلافدى » اللحظة ؟ على أن هذا محال » .

قبع الرجل تحت لحافه وأغمض عينيه واستعاذ بالله ، وعاودته ذكرى الميت الذى شوهد يتقلب فى نعشه والدفين الذى ثار من قبره فى أكفانه وظهرت لعين وهمه أشباح الأموات من أهله وأقاربه ولا سيما شبح حماته وجدته وشبح زميل له كان قد شنق نفسه فيما مضى وشبح صبية كانت قد أغرقت نفسها وحاول جهده أن يطرد هذه الوساوس المزعجة ، ولكنه كلما جهد فى إبعادها ازدادت به تشبثاً وعليه إطباقا ، فاستولى عليه الرعب وطارت نفسه شعاعا .

وناجى نفسه .

« تعساً لى ونكساً ! هأنذا رجل حصيف متين القوى ثم ترانى أرجف فزعا فى الظلام كأنى غلام صغير ، إنْ هذا إلا حمق مبين ! »

« تك . . . . . تك . . . . . تك . . . . . » سمع دقات الساعة فى الغرفة الملاصقة وأجاب عن هذه الدقات ناقوس الكنيسة فى الدير المجاور ، له

رنين شجى حزين كرنة الثكلى ، فارتجف صاحبنا « فاكسين » وعرته هزة سرت كالزمهرير فى قفاه وفقاره ، وخيل إليه أن امرأ يتنفس فوق رأسه كأن عمه « كلافدى » قد برز من إطار الصورة المعلقة على الحائط وسعى نحوه يحنو عليه . . . فتمكن منه الرعب وأنشب فيه مخالبه ، وقضقضت أنيابه وسدت منافسه .

ومما زاد الطين بلة صرصور هبط على النافذة إذ ذاك وشرع يصرصر بأعلى صوته ، عندئذ عم الويل وطفح الكيل ولم يبق فى قوس الصبر منزع ، ومد الرجل يده إلى حبل الجرس فجذبه جذبة عنيفة .

وهنا سمع صوت رئيسة الخدم — شابة ألمانية سمينة مليحة — تقول : « ما بالك يا ديمترى فاكسين ، وماذا تريد ؟ » و بعد لحظة كانت واقفة على باب غرفته .

فصاح فاكسين فرحاً متهللا :

« إذاك أنت يا روزاليا كارلوفنا ؟ ولم تجشمين نفسك كل هذه المشقة ؟ لم لم ترسلى « جافريلا » مثلا ؟

« لقد أرسلت أنت جافريلا فى بعض شأنك واليكس غائب الليلة عند أهله وجلافيرا مع سيدتها ، ولم أر الليلة أثراً لماشا ولا ليزا ، فليس فى الدار أحد سواى ، ولكن ماذا تريد ؟ » .

« المسألة . . . الأمر وما فيه . . . أريد . . . اسمعى . . . ادخلى ولا بأس عليك فإن الغرفة ظلام فلا خوف عليك منى » .

دخلت الفتاة السمينة الموردة الخدين ووقفت دون الباب تنتظر الأوامر .

« اجلسى من فضلك لا بأس عليك ، لا تخافى » ثم قال فى نفسه :

« واحيرتى ! ماذا أقول لها وأى شىء أسألها ؟ وجعل يكد ذهنه و يقدح قريحته ، ثم اختلس نظرة إلى صورة وأحس بشىء من الأمن والطمأنينة .

« الذى أردت أن أطلبه إليك هو . . . اسمعى . . . متى كان الخادم ذاهباً إلى المدينة فلا تنسى إبلاغه إن . . . إن . . . إن . . . اسمعى . . . كلفيه أن يحضر معـه دفتر ورق سجاير . . . ولكن من فضلك و إحسانك . . . اجلسى » .

« أريد . . . لا أريد شيئاً ، ولكن اجلسى من فضلك . . . سأنظر ماذا أريد غير ذلك » .

قالت الفتاة :

« واخجلتاه ! يا للرجال لشيخ كبير متظاهر بالصلاح والتقى يستثير فتاة عذراء لا ثالث معهما ! عار عليك يا رجل ، الآن عرفت خبيئة أمرك ومكنون سرك ، و إنك فاسق فاجر ، لقد فطنت وفهمت ، دفتر سجاير ! متى كان الناس يزعجون من منامهم من أجل دفاتر السجاير ؟ لقد انكشفت نياتك الخبيثة ! » .

وعلى ذلك انطلقت الفتاة من الغرفة .

وانتفع الرجل بهذه المحاورة فاسترد بها نافر جأشه وعازب صوابه وأقبل على نفسه يعنفها من أجل فزعها وهلعها ، ثم لف رأسه باللحاف وأغمض

عينيه ، وأمضى عشر دقائق فى أمان الله ، و بعد ذلك بدأت السخافات المعهودة تتسرب إلى نفسه ثانياً ، فأقبل يسب نفسه و يلعنها ، ثم نزل عن الفراش وجعل يتخبط فى أنحاء الغرفة مغمض العينين (لم يجرؤ أن يفتح عينيه خشية العفاريت) يتلمس علبة الكبريت وقد عثر فى أثناء ذلك بجرة الماء فكسرها وأراق ما بها واصطدم بالمائدة فقلبها وحطم ما عليها من الآنية — كل ذلك ولم يجرؤ أن يفتح عينيه — ولما أصاب الكبريت أشعل عوداً وأسرج شمعة وعاد إلى فراشه .

ولم ينفعه ضوء الشمعة إذ لم يذهب بشىء من خوفه ، وقد خيل إليه أن شبحاً ينظر إليه من ركن الحجرة وأن عينى عمه تتقلبان وتدوران فى الصورة فقال :

« لأنادين الفتاة ثانياً ، تباً لها من غبية حمقاء ! سأخبرها أنى مريض وأنى أريد روح النشادر » .

دق الجرس ولا مجيب ، وعاود الدق فأجابه ناقوس الكنيسة يدق الساعة .

فاستفزه الرعب فوثب من الفراش وانطلق من الغرفة هارباً على وجهه يرسم علامة الصليب و يلعن نفسه لفرط جبنها وخورها ، وطار عارى الرأس حافى القدم فى قميص النوم حتى بلغ غرفة الفتاة ، وشرع يقرع الباب بيد مرتجفة و يصيح بصوت مضطرب متقطع .

« روزاليا كارلوفنا ! روزاليا كارلوفنا ! هل أنتِ نائمة ؟ افتحى الباب !

إنى أشعر . . . ب آه ! . . . . يا راسى ! إنى مريض الحقينى . . . روح النشادر . . . اسعفينى بروح النشادر . . . أرجوك . . . اصنعى معروفا . . . أرجوك . . . هل فهمت غرضى . . . . ما معنى هذا الحياء البارد ؟ . . . ما هذا الاحتشام البايخ ؟ إنى مريض ، إنى احتضر ، أفى مثل هذه الأزمة الشديدة يحسن منك الدلال والتمنع ؟ وفى مثل سنك ؟ أتحسبين أنك لا تزالين طفلة ؟ »

قالت الفتاة من داخل الغرفة « تالله لأخبرن زوجتك بكل هذا ، أحرام عليك أن تترك فتاة عذراء طاهرة الذيل نقية معقد الأزار لم يعلق بأردانها الدنس وشأنها ، لست أول من حاول بى مثل هذه النقيصة ، فلقد هم بها من قبلك البارون « انزيج » الذى كنت فى خدمته إذ طرقنى جوف الليل يطلب كبريتاً ففهمت كبريته ، وأخبرت البارونة زوجته ، فاعلم ياديمترى فاكسين أنى لست من أولئك الفاسقات ، إنى صالحة تقية » .

« لعن الله صلاحك وتقواك ، إنى مريض ، وبحاجة إلى قطرات من روح النشادر ، أفهمت غرضى ؟ إنى مريض » .

قالت الفتاة من وراء الجدران « أى عيب فى زوجتك حتى تملها وتجتويها ؟ وهل أنا أحسن من زوجتك ؟ إنها أروع منى جمالا ، وأملح دلالا ، وأفتن لحظاً وأرخم لفظاً وأرق ظرفا ، فلم تقلاها ، ولا تهواها ؟ وهى فوق ذلك كريمة نبيلة ، وما كنت لأهيج حقدها وغيرتها ، وأستثير بغضها وعداوتها » .

فاستند « فاكسين » إلى جانب الباب وضم ذراعيه إلى صدره وانتظر حتى يفرخ روعه . — فأما رجوعه إلى حجرته حيث يرى الأشباح المزعجة تطل عليه من أركانها ويبصر عمه يقلب إليه عينيه من الصورة فذلك مالا يطيق بحال ، وأما وقوفه على باب الفتاة عارى الرأس حافى القدمين فى قميص النوم فذلك الخزى والعار والفضيحة ، فماذا يصنع ؟

دقت الساعة الثانية بعد منتصف الليل ولم يزايله خوفه ولا فارقه رعبه ، وكان الدهليز فى ظلام حالك ، وخيل إليه أن شيئاً أسود لا يزال يطل عليه من كل ركن وزاوية فاستدار « فاكسين » وألصق وجهه بالحائط حتى لا يرى ذاك الشيء الأسود ، ولكن خيل إليه فى تلك اللحظة أن امرأ جذب قميصه من دبر ومسح بيده على كتفه ، فصاح .

« العياذ بالله ! روزاليا كارلوفنا أدركينى ، لقد جثم عزرائيل على منافسى ! إنى أحتضر ! إنى أموت ! »

لا رد ولا جواب ، وأمسك « فاكسين » الباب وفتحه برفق بعد طول تردد ثم أطل من خلاله فإذا الفتاة الألمانية الطاهرة نائمة قد زادها النوم رقة حلاوة وفتور محاسن ، وأبرز ضياء المصباح بدنها البض المكتنز للعيان ، فدخل الرجل المسكين بكل بطء وانقباض ثم قعد على فروة قرب الباب حزيناً منكسر القلب ، ولكنه أحس بنوع من الطمأنينة إذ ألفى نفسه فى حضرة مخلوق حى وإن كان ذلك المخلوق نائماً .

وقال فى نفسه :

فلتنم الألمانية الغبية الحمقاء ملء أجفانها فسيان عندى أكانت نائمة أم يقظى ، وحسبى أن أرى شخصها وأسمع أنفاسها وأعلم أنها حية ، ومتى حدر الصبح نقابه نهضت إلى غرفتى .

وكذلك طوى الرجل جسده وجمع ركبتيه إلى ذقنه حتى صار كالقنفذ وتوسد يمناه ينتظر الصباح .

وناجى نفسه .

« ما علمت آفة هى أشد بلاء على صاحبها من ضعف الأعصاب ، يالله! ويا للعجب العجاب ! ويا للبلية ويا للمصاب ! رجل كهل فى الخمسين من عمره ، فى السن التى تتقلد فيها الوزارات والولايات ورياسة الحكومة وتشاد فيها المفاخر والمآثر والحسب الضخم والمجد العتيد — رجل مستحكم الرجولة ومهندس معمارى عظيم الشأن مشهود له بالتفوق فى فنه والمشاركة فى سائر العلوم والفنون ، يضرب المثل بمهارته ، وحذقه وبراعته — يبيت الليل كمن به مس من خبل أو جنون لفرط الفزع والرعب من لا شىء ! وتراه تارة واقفاً على باب خادمته كالشحاذ حافياً عارياً ، وتارة كالكلب المغضوب عليه راقداً قرب الباب على فروة رثة بالية ! يا للخزى ويا للعار ويا للفضيحة ! » .

* * *

عادت زوجة « فاكسين » من الكنيسة الساعة السادسة صباحا ،

فعمدت إلى غرفة زوجها ، ولما لم تجده بها ذهبت إلى غرفة الخادمة روزاليا لتسألها بضعة دراهم أجرة الحوذى الذى جاء بها من الكنيسة إلى الدار .

ولما دخلت غرفة الفتاة الألمانية صافح عينيها منظر عجب :

روزاليا كارلوفنا فى أحلى نومة على سريرها وعلى قيد ذراعين منها زوجها الهمام مطوياً ملتفاً كالأفعى على الفروة يغط فى نومه غطيط الرجل الآمن المطمئن البرىء الساحة المستريح الضمير .

فأما موقف الزوج أمام زوجته حين انتبه من منامه وما وجهته إليه من الكلام فأترك لغيرى وصفه إذ كان يعلم الله فوق طاقتى وقدرتى .

الرهان

للروائى الروسى أنتون تشيكوف

فى ليلة مظلمة من ليالى الخريف كان الشيخ المتمول أحد أرباب المصارف يجول فى حجرته ويتذكر أنه منذ خمسة عشر عاماً كان قد أقام فى نفس تلك الحجرة حفلة شهدها نخبة من الأذكياء الألباء وكانت المناقشة قد دارت فيما بينهم على شئون وأغراض شتى ضمنها مسألة العقوبة بالإعدام ، فاستقر رأى الأغلبية على خطأ ذلك المذهب بحجة أنها عقوبة لا تتفق مع ناموس الآداب الحديث ولا مع روح المسيحية السمحاء .

قال رب الدار .

« لا أوافقكم على هذا أنا لم أجرب الإعدام ولا السجن المؤبد ولكنى أستدل بوحى العقل والبصيرة على أن عقوبة الإعدام أقرب إلى العدالة وأدنى من الرحمة ، والإعدام هو القتل السريع الهين ، والسجن المؤبد هو القتل البطىء المضاض ، وأى الجلادين أحن وأرحم — من يختلس روحك اختلاساً كلمح البصر أو من يعتصر من أحشائك الحياة اعتصاراً على مدى أعوام عديدة ؟

قال أحد الضيوف .

« هما سيان ، لأن مقصدهما واحد وهو سلب الحياة ، ولا أرى للحكومات الحق فى إعدام الأفراد فذلك من حق الإله وحده ، وما الحكومة بإله ، وما كان لها أن تسلب ما لا تستطيع أن ترد » .

وكان بين الحضور شاب محامٍ فى الخامسة والعشرين من عمره ؟ فلما سئل عن رأيه قال :

« كلا العقابين منافٍ لناموس الآداب ، ولكنى إذا خيرت بين الاثنين اخترت السجن المؤبد ، فلأن تعيش على أية حال خير من ألاَّ تعيش مطلقاً . »

حمى وطيس الجدال وكان الشيخ المتمول صاحب المصرف يومذاك أحدث سناً منه اليوم وأسرع هياجاً فضرب بيده على المائدة وصاح يخاطب الشاب المحامى .

« قولك باطل ! إنى أراهنك على مليونين من الذهب إنك لن تطيق السجن الإنفرادى خمسة أعوام » .

قال الشاب « إذا كنت فى كلامك هذا جاداً غير هازل فإنى أقبل ذلك الرهان على أن أسجن خمسة عشر عاماً لا خمسة فقط » .

قال صاحب المصرف « خمسة عشر عاماً » ! موافق ! أيها السادة لقد قبلت الرهان على مليونين ! « قال الفتى « إنى موافق » وشاء الله أن ينفذ هذا الرهان الأخرق الطائش ! وكان صاحب المصرف عنيداً قد أطغاه فرط الغنى وكان المليونان شيئاً حقيراً فى جانب ثروته التى لا تكاد تحصى ،

فجعل أثناء العشاء يسخر من الشاب المحامى وقال له .

« تبصر فيما أنت قادم عليه ولا تتورط ، واعلم أن المليونين لا يؤذياننى ، ستحرم زهرة شبابك وتخسر صفوة عمرك ، وأكبر ظنى أنك خاسر عمرك كله فما إخالك تبقى بعد أربعة أعوام أو خمسة على الأكثر إنى عليك جد آسف ! » .

هذه الحادثة منذ خمسة عشر عاماً .

والآن جعل ذلك المتمول صاحب المصرف يروح ويغدو فى أنحاء حجرته يتذكر ما جرى أثناء تلك الليلة الغابرة ويناجى نفسه قائلاً .

« عجباً عجباً ! ما كان أحمقنى وأسفهنى إذ عقدت ذلك الرهان ! سحقاً لى ومحقاً ! أى فائدة فى ضياع مليونين منى وخمسة عشر عاماً من حياة ذلك الرجل ؟ أيقوم هذا دليلاً على أن الإعدام خير أو شر من السجن المؤبد ؟ كلا ! كلا ! لم يكن ذلك إلا سفهاً وحماقة ، لقد كان طغياناً منى وأشراً وبطراً ، وكان منه طمعاً أو جشعاً » .

ثم أخذ يتذكر ما كان بعد ذلك وهو هذا : تقرر أن يقضى الشاب مدة أسره تحت المراقبة الشديدة فى غرفة بحديقة صاحب المصرف ، وإنه لن يتخطى عتبة هذه الغرفة مدى خمسة عشر عاماً لا يبصر خلالها وجه إنسان ولا يسمع صوت إنسان ولا يعطى رسائل ولا صحفاً — ولكنه قد يمنح آلة موسيقة وكتباً ويسمح له بتحرير الرسائل وشرب الخمر والتدخين ، وبمقتضى نص العقد كان طريق اتصاله بالعالم الخارجى

لا يتعدى نافذة صغيرة أعدت لهذا الغرض ، وكان مباحاً له أن ينال كل ما يطلب من كتب وأسفار وآلات طرب وخموز وأنبذة وهلم جرا بتحرير طلب بهذه ، ثم يتسلمها من خلال النافذة ، ونص العقد على بقائه فى الأسر خمسة عشر عاماً بالضبط — ابتداء من الساعة الثانية عشرة من ١٤ نوفمبر ١٨٧٠ إلى الساعة الثانية عشرة من ١٤ نوفمبر ١٨٨٥ ، وأدنى سعى فى نقض هذه الشروط يلغى العقد و يعفى الطرف الآخر من التزامه دفع المليونين .

* * *

لقد قاس الأسير أهوالاً شديدة خلال العام الأول من سجنه من جراء الوحدة والوحشة كما تبين من مذكراته ، وكانت أصوات البيانو تسمع ليل نهار بلا انقطاع من تلقاء حجرته طول هـذه المدة ، وقد رفض الخمرة والدخان — بعلة أن الخمرة تثير الشهوات والرغبات وتهيج الصبابة إلى رؤية الأصحاب والأحباب .

راح إذا ما الراح كن مطيها كانت مطايا الشوق فى الأحشاء

وماذا يجدى المرء أن يستثير صبابته إلى رؤية الأخدان والخلان حيث لا يطمع أن يرى وجه مخلوق أما الدخان فحسبك منه مضرة أنه يفسد هواء الغرفة ، وكانت الكتب التى طلبها خلال العام الأول من قبيل ما يتفكه به و يتسلى كالروايات الغرامية والقصص الخيالية .

وفى العام الثانى سكن البيـانو وخفتت أصواته ولم يطلب الأسير من الكتب إلا المؤلفات الأغريقية واللاتينية والإيطالية القديمة .

فى العام الخامس سمع صوت البيانو ثانياً وطلب الأسير صنوف الخمر ، وروى من كان يراقبونه من خلال النافذة أنه لم يك يصنع شيئاً طوال هذا العام سوى تناول الطعام والشراب والرقاد على فراشه يتثاءب تارة ويحادث نفسه بلهجة المحنق الغضبان تارة ، ولم يقرأ فى أثناء تلك المدة كتباً ولا أسفاراً وكان فى أثناء الليل ربما جلس إلى مكتبه فأمضى الساعات الطوال كتابة وتحريراً ، ثم لا يلبث أن يمزق كل ما كتب وحرر . وقد شوهد غير مرة يبكى وينتحب .

وفى الشطر الأول من العام السادس تولدت فى الأسير أشد رغبة لدراسة اللغات والفلسفة والتاريخ فانغمس متحمساً فى لجج هذه المباحث حتى ضج صاحب المصرف من كثرة ما كان يطلبه من الكتب ، وقد بلغ ما قدم إليه من المؤلفات فى خلال الأربعة الأعوام التالية نيفاً وستمائة سفراً وفى أثناء هذه المدة ورد على صاحب المصرف من الأسير الرسالة الآتية :

« سجانى العزيز — إنى أكتب إليك هذه السطور بست لغات مختلفة فأعرضها على العارفين تلك اللغات من الراسخين فى العلم — فإذا شهدوا لها بالبلاغة والإتقان والبراعة فاجعل لى آية على ذلك بإرسال طلقة نارية فى الحديقة ، فستدلنى هذه الطلقة على أن أوقاتى ومجهوداتى لم تذهب سدى .

إن نوابغ الفحول من كل عصر وأمة يتكلمون لغات شتى ، ولكن جذوة العبقرية التى تلتهب فى الجميع واحدة ، ألا حبذا لو تعرف مقدار ما يفعم نفسى من اللذة الروحانية والسعادة السماوية لبلوغى فى العلم تلك

المرتبة ، ولا قتدارى على فهم تلك اللغات وامتلاكى مفاتيح تلك الكنوز والخزائن » .

أجاب المتمول ذلك الطلب وتبين أن أسلوب الأسير بالألسن الستة آية فى البلاغة وغاية فى البراعة ، فأمر باطلاق طلقتين لا واحدة .

وبعد السنة العاشرة جلس الأسير إلى المائدة لا حراك به ، وجعل لا يقرأ سوى الإنجيل ، وتعجب المتمول إذ رأى الرجل الذى استطاع فى سنين أن يدرس ستمائة من أغزر الكتب مادة وأبعدها غوراً وأعوصها مطلباً — ينفق عاماً فى تلاوة سفر صغير الجرم قريب المتناول .

وتلا الإنجيل مؤلفات الفقه وتواريخ الأديان .

وفى العامين الأخيرين من مدة السجن قرأ الأسير كميات جسيمة من شتى أفانين المؤلفات والمصنفات .

ينغمس آناً فى كتب العلوم الطبيعية ، وآناً يعكف على صفحات شاكسبير أو بيرون ، ثم ينتقل إلى كتب الكيمياء والفيسيولوجيا ، وتمت مذكرات بخطه كان يطلب فى المذكرة الواحدة خليطاً من الأسفار — فى الطب والهندسة والفلسفة والاقتصاد والفقه والقانون — فكان فى ذلك كالرجل الذى يعوم فى لجة البحر بين انقاض سفينته المحطمة يحاول إنقاذ نفسه بالتشبث بهذا اللوح تارة وبذلك أخرى .

* * *

تذكر المتمول كل هذا وأخذ يناجى نفسه بهذه الكلمات .

« سيسترد الأسير حريته الساعة الثانية عشرة غداً ، وأرانى ملزماً بموجب العقد المبرم بيننا أن أعطيه مليونين ، ولو دفعت له هذا المبلغ لأفلست وأصبحت شحاذاً متسولا » .

والواقع أن الرجل كان منذ خمسة عشر عاماً أعنى يوم عقد الرهان وإبرام العقد مفرط الثروة لا تكاد تحصى أمواله ، أما اليوم فكاد يخشى أن يسائل نفسه هل أصبح كل ما لديه مساويا لما عليه ، لقد تحيفت المضاربات ثروته وهدمت المجازفات التجارية والمخاطرات المالية أركان وفره ومدخره

وقال يناجى نفسه :

« ألا سحقاً لهذا الرهان المشؤم وتعسا ! وهذا الرجل حى للآن ! ياللبلية كيف لم يمت ! إنه اليوم فى الأربعين من عمره ، سيسلبنى ثروتى ويبتز آخر درهم عندى ، ثم يستقبل الحياة فرحا طروبا مكللا بالثراء والعز والجاه والنعمة وسيمتع بالحياة وينعم ويلهو ويلعب ، ويضارب فى الغرفة التجارية

— وأنا فى أثناء ذلك أنظر إليه محروما محروبا خاوى الوفاض ، بادى الأنفاض أسمع منه يوماً بعد يوم هـذه التعزية « إنى مدين لك بكل ما أنعم به فى الحياة وأستمتع ، دعنى أساعدك ! » كلا كلا ! هذا كثير جداً ، هذا ما لا أحتمله ولا يحتمله بشر ، أما أنه لا منقذ لى من الإفلاس والتسول إلا هلاك ذلك الرجل ! »

دقت الساعة ثلاثاً وأرهف المتمول أذنيه يتسمع لقد استغرق النوم كل من فى الدار ولم يسمع خارجها سوى حفيف الشجر .

تناول الرجل من صندوق لديه مفتاح حجرة الأسير — تلك التى لم يفتح بابها منذ خمسة عشر عاماً ، ثم ارتدى رداءه وغادر المنزل .

وكانت الحديقة مظلمة الجو قارة الهواء وقد هبت بها ريح صرصر نافحة تصيح وتعول وتهز الأشجار وتزلزل ، وحدق الرجل فى الظلمات الحالكة فلم يبصر أرضاً ولا سماء وقد حجب الليل سائر الأشخاص عن بصره فسار يخبط العشواء يتلمس موضع محبس الأسير ، ونادى الخفير مرتين فلم يجب ، وكأنه قد أوى من الريح والبرد إلى بعض الأكنان وكأنه الساعة يغط فى نومه .

وقال الرجل فى نفسه « لو أمكننى الله من إنفاذ خطتى لكان الخفير أول من تقع عليه الشبهة » .

وأخذ يتحسس فى الظلام حتى لمس الباب الخارجى للمحبس فعالجه فأفضى إلى شبه ردهة صغيرة وهنالك استكن من عصفات الرياح وأشعل ثقاباً ، وأخذ يفتش فى أنحاء تلك الردهة ، فلم يجد بها أحداً ، وألفى سريراً بلا فراش وموقداً خامداً بإحدى زوايا المكان ، وعاين باب حجرة السجين فألفى ما كان مطبوعا من الأختام سليما .

ولما خبا الثقاب أطل الرجل — وهو يرتعش اضطراباً وقلقاً — من خلال النافذة فى حجرة الأسير فألفاها مضاءة بشمعة ضئيلة — وألفى الأسير جالساً إلى المائدة لا يرى منه إلا ظهره وقذاله ويداه ، وكانت الكتب والأسفار منثورة مبعثرة على المائدة والكراسى وبساط الغرفة .

مرت خمس دقائق ولم يتحرك الأسير ولم تنبعث منه جارحة ، لقد علمه السكون والجمود سجن خمسة عشر عاماً ، ونقر صاحب المصرف بإصبعه على النافذة فما أجاب الأسير بأية حركة .

عند ذلك فض المتمول أختام الباب بمنتهى الاحتراس والحذر ووضع المفتاح فى ثقبه ، فانبعث من القفل الصدئ صليل وصر الباب ، وكان المتمول يتوقع أن يسمع صيحة اندهاش ووقع خطوات، ولكن مرت ثلاث دقائق ولم يسمع شيئاً ، فعقد النية على دخول الغرفة .

إلى جانب المائدة كان يجلس رجل ليس كسائر الرجال — هيكل عار مجرد — جلد على عظم وعظم على وضم — ذو خصل طويلة من الشعر مسترسلة على كتفيه كشعور النساء ولحية كثة — أصفر الوجه أجوف الوجنتين غائر العينين مرتفق على المائدة ، يتوسد رأسه الأشعث ذراعا معروقة مشذبة مهزولة يروعك منظرها ، قد وخط شعره المشيب بأسلاك من الفضة .

فلو اطلعت عليه لحسبته من أمارات الهرم ودلائل الشيخوخة قد جاوز التسعين من عمره .

وكان نائماً ، وإزاء رأسه المنكس رقعة من الورق على المائدة عليها أسطر بخط بديع مونق .

وقال صاحب المصرف فى نفسه .

« يرحمك الله أيها الشقى البائس ، لعلك تحلم بالمليونين ، فما على والله

إلا أن ألفك فى اللحاف وأضع الوسادة على متنفسك فاعتصر من جوانحك بقية الرمق الذى تركه السجن الطويل فى جوفك ، ولكن دعنى أقرأ أولا ما سطرته يداك على هذه الورقة » .

ثم تناول الصحيفة من فوق المائدة وتلا بها العبارة الآتية :

« فى الساعة الثانية عشرة غداً أسترد حريتى ، ولكنى قبل مغادرة هذا السجن أرى من الواجب على أن أدلى إليك بهذه الكلمة :

« أشهد الله وملائكته ورسله أنى أحتقر الحرية والحياة والعافية ، وكل ما تسمونه كذباً وزوراً ملذات العيش ومناعمه . »

« لقد لبثت خمسة عشر عاماً أدرس هذه الحياة أدق دراسة وأوفاها ، حقاً إنى لم أشاهد العالم وأهله بالذات ، ولكنى شاهدت كل شىء ولمست كل شىء فى كتبكم وأسفاركم ، ففى ثناياها و بين طياتها عاقرت بنت الحان . وترنمت برخيم الألحان ، وطاردت المها والغزلان على رءوس الآكام وفى بطون الوديان ، وعشقت الحسان من كل هيفاء مبدان لها من حلاوة الألحاظ والألفاظ سحران ، ومن الضفائر للضمائر ، ومن الأهداب للألباب أحبولتان » .

« لقد هبطت على فى دجى الليل من سماء خيال شعرائكم حور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون فأسرت فى أذنى أقاصيص عجباً كادت تطيح بلبى وتذهب بعقلى » .

« و بين دفات أسفاركم تسلقت هضاب « البرز » وتسنمت ذروة

« بلانك » ومن ثم شاهدت شمس الشروق تنثر فى حجر الصباح عقياناً وشمس الغروب تصب على جوانب الأفق والمحيط من ذوب ذهب الأصيل طوفاناً ، ومن ثم شاهدت أسياف البرق تسل فوق رأسى وتغمد فى احشاء الغمام » .

« وكم رأيت من آجام وآكام ، ورياض وغياض وبحار وأنهار وخلجان وبلدان ، ولقد سمعت غناء الساحرات ، ونشيد الرعاة ، ولقد لمست أجنحة الشياطين الحسان الذين هبطوا على فحدثونى عن الآلهة أعجب الأحاديث » .

« وفى طيات كتبكم قذفتْ بنفسى فى أعماق الهاوية ، وأتيت بالمعجزات ، وذبحت العباد ، ودمرت البلاد ، وأهلكت الحرث والنسل ، وحطمت الأوثان ، وأظهرت الأديان ، وغزوت الأقطار . وفتحت الأمصار

« لقد أفادتنى كتبكم العلم والحكمة ، وقد أصبح جميع ما أنتجه العقل الإنسانى من الأفكار والآثار ، وكل ما ولدته القريحة البشرية من المستحدثات والمستكشفات مشحوناً فى وعاء ذهنى منقوشاً على صحيفة قلبى ، فأنا أعلم منكم جميعاً وأنفذ بصيرة وأصح رأياً .

« ولكنى — بعد ذلك كله — أحتقر كتبكم وأسفاركم ، أحتقر العلم والفلسفة والحكمة ، أحتقر متاع الدنيا وزينتها وزخرفها وطيباتها ولذاتها ومناعمها ، أحتقر هذه الحياة الفانية وكل ما فيها ، وما فيها إلا الأباطيل والترهات والأضاليل والخرافات والخدع والأكاذيب والأفك والزور

والبهتان والتمويه والتغرير — كبرق خلب أو سراب يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده ماء » .

« فتكبروا أيها السفهاء وتجبروا ما شئتم وشاء لكم الجهل والغرور والحماقة ، واطغوا وابغوا أيها الأغبياء وهزوا أعطافكم زهواً وجرروا أذيالكم تيها وعجبا ، فلسوف يمسحكم الموت من فوق ظهرها مسحا كما لو كنتم النمال أو الجرذان أو العناكب ، وكل ما تخلفونه مما يسمونه تاريخكم العظيم ومجدكم الباسق وعبقرياتكم الخالدة سوف يحترق أو يتثلج يوما ما مع هذه الكرة الأرضية !

« لقد أضعتم رشادكم وفقدتم صوابكم وأضللتم سواء السبيل وجرتم عن القصد ، لقد حسبتم الكذب صدقاً ، والباطل حقاً ، والقبح حسناً ، والشين زينا ، وأراكم تعجبون لو أبصرتم الأفاعى والعقارب تنمو بغتة — لعلة ما — على شجر التفاح والبرتقال بدل الفاكهة أو ألفيتم الورد والياسمين يفوح بنتن آباط الزنوج بدل الأريج والعبق — وكذلك أنا أعجب لكم كيف تشترون الضلالة بالهدى ، والشقاء بالنعيم وجهنم بالفردوس أنا لا أفهمكم ولا أريد أن أفهمكم !

« ولأثبت لكم فعلا إنى أحتقر دنياكم هذه ، وأنى فى كل ما تحبون زاهد ، وعن كل ما تشتهون راغب ، أعلنكم إنى أرفض مليونى الذهب اللذين كنت مرة أتوق إليهما كما يتاق إلى الجنة ، وقد أصبحت الآن أحتقرهما

ولكى أحرم نفسى حق الإستيلاء عليهما سأغادر هذا المكان قبل الأجل المضروب بخمس ساعات — و بذلك أفسخ العقد » .

* * *

لما تلا المتمول تلك الكلمة ألقى الصحيفة على المائدة ، وأقبل على رأس الرجل النائم فقبله وخرج من المحبس وهو يبكى و إنه ليحتقر نفسه من صميم فؤاده ، ولما بلغ منزله استلقى على فراشه وجعل يحاول النوم ، ولكن ، عبراته وزفراته حالت دون ذلك .

وفى الصباح جاء الخفير يعدو أصفر الوجه فنبأه أنه أبصر السجين يخرج من النافذة إلى الحديقة وقد مضى على وجهه فى العراء حتى غاب عن البصر !

كمنجة روتشيلد

للقصصى الروسى تشيكوف

كان « يا كوف » من أهالى بلدة صغيرة فقيرة أحقر من قرية ، وكان معظم أهلها شيوخا وعجائز ، قلما يموتون — كانت ندرة الوفيات بينهم مما لا يزال يكدر صفو الحانوتى يا كوف ويهيج غيظه ، ولو أن يا كوف كان فى إحدى المدن الكبيرة لكان له شأن آخر — إذن لكان فى رغد من العيش وثراء ، وكان يسكن داراً ملكه ، وكان الناس ينادونه المسيو يا كوف أما فى هذه البلدة الحقيرة فكانوا يسمونه يا كوف فقط ، وكان يلقبونه فى الشوارع « البرونز » لا ندرى لماذا ، وكان يعيش عيشة خشنة وضيعة فى كوخ ضيق عتيق ليس به سوى حجرة واحدة ، قد شحن فيها نفسه وامرأته « مارفا » والموقد والحلل والكوانين وفراش النوم ، وكرسى الشغل ونعوش الموتى والأخشاب وسائر أمتعتهم و « كراكيبهم » .

كان يا كوف يصنع نعوشاً جيدة متينة .

فأما النعوش المطلوبة للفلاحين والصناع فكان يفصلها على مقاس جسمه هو ، إذ لم يكن فى أهل هذين الطبقتين من هو أطول منه ولا أعرض ولا أشد منه ولا أبقى كدنة ، وإن كان قد جاوز السبعين ، وأما نعوش

السراة والسيدات ، فكان يصنعها على مقاس الميت ، وكان عنده مسطرة حديدية ذات مقياس لهذا الغرض ، وأما نعوش الأطفال فكان يراها أحقر من أن يأخذ مقاسها ، فيصنعها ارتجالا بلا أدنى احتفال ولا عناية .

وكان فضلا عن كسبه من صناعته ينال رزقا طفيفاً من العزف على الكمنجة .

كان اليهودى « شاكيس » السمكرى ، صاحب « أوركستر » أو « تخت » مؤلف من نفر من اليهود ، وكان يحيي بتخته أو بأوركستره ليالى الأعراس بالبلدة ، وكان أحياناً يضم إلى تخته صاحبنا يا كوف الحانوتى لما اشتهر به ذاك الأخير من الحذق بالكمنجة ، وكان يعطيه فى الليلة نصف روبل علاوة على ما كان يناله من « النقطة » من الضيوف ، وقد جعل يا كوف أو « برونز » لغير ما علة ظاهرة يستشعر نوعا من الكراهية والبغضاء لأولئك اليهود أفراد الأوركستر ، ولا سيما لأحدهم المسمى «روتشيلد» (على اسم المليونير المشهور) . كان روتشيلد هذا يجلس بالتخت إلى جانب يا كوف يعزف على الناى وكان طويلا نحيلا هزيلا ، أحمر الشعر ، تنتشر على أديم وجهه شبكة محوكة من عروق حمراء وزرقاء — وهذا اليهودى الملعون كان له فى العزف بالناى طريقة منكرة ممقوتة ، وهى أنه كان يخرج لك ألحان الفرح والسرور من نايه فى أحزن الأصوات وأوجع الأنغام ، فشرع يا كوف من فرط إبغاضه ذاك اليهودى يتجنى عليه الذنوب ويشاجره ويسل عليه بالهجاء لسانه . بل لقد حاول مرة أن يصرعه

حتى غضب روتشيلد وحدد طرفه إلى يا كوف وعيداً وقال له :

« لولا احترامى لنبوغك وفنك ، لقذفت بك من النافذة » .

ثم أخذ يبكى ، وعلى ذلك أقل صاحب الأوركستر من استدعاء يا كوف فكان لا يندبه إلا فى الضرورة القصوى ، عند تغيب أحد أفراد التخت .

كان يا كوف لا يرى قط مسروراً ، كان أبداً عابساً مكفهراً ، إذ كان يعتقد أن حياته مملوءة بالخسائر . مثال ذلك أنه كان يعتقد أن الشغل حرام فى أيام الآحاد والأعياد ، وأن يوم الاثنين فيه ساعة نحس ، ففى العام مائتا يوم يجد نفسه مضطراً إلى قضائها مشلول اليدين عن العمل ، كارهاً أو مختاراً — وأى خسارة فى هذا ؟ وإذا صنع أحد الأهالى وليمة أو عرساً من غير « أوركستر » أو إذا ذهب « شاكيس » بتخته إلى عرس أو وليمة ثم لم يستصحب « يا كوف » فتلك خسارة أيضاً ، — وقد كان مدير السجن لبث عامين مريضاً يذوب جسمه ضنى ويتساقط هزالا ، وكان يا كوف ينتظر موته بفارغ صبر ، ولكن مدير السجن هذا ذهب إلى عاصمة الإقليم استشفاء وهنالك بدا له أن يموت فمات على رغم أنف يا كوف ، وهناك خسارة أخرى ، — عشرة روبلات على الأقل ، لأن نعش مدير السجن ليس كسائر النعوش ولكنه من الغاليات المبطنات بالخز المزركش ، — لقد كانت ذكرى هذه الخسائر تنتاب يا كوف ليلا ، فتقلق وساده ، وتطيل سهاده ، وكان إذا استلقى على فراشه أخذ الكمنجة إلى جانبه ، فاذا ازدحمت فى صدره لواعج الهموم ، ومزعجات الهواجس لمس الكمنجة

فأرسلت فى الظلام صوتاً ، فيسرّى من كربه وينفس :

فى السادس من مايو من العام الماضى ، أصيبت « مارفا » زوجة « يا كوف » بمرض فجائى فقضى « يا كوف » سحابة يومه يعزف على كمنجته ولما جن الليل تناول دفتره وأقبل يدون خسائر يومه ، وكان ذلك دأبه ثم أحس انقباضاً فى صدره فرأى — على سبيل التسلية — أن يعمل إحصاء عن إجمالى خسائره فى العام المنصرم — فأسفرت نتيجة حسابه عن نيف وألف روبل ، (وكان يعمل الحساب على سبحة خصيصة بذلك) فهاله جسامة هذا الرقم ١٠٠٠ روبل فضلا عن ثمن النعش الذى سيصنعه لزوجته لأن « مارفا » قد تموت بين عشية وضحاها فما كاد يفكر فى النعش حتى تناول مسطرته الحديدية وعمد إلى العجوز فأخذ مقاسها ثم وسد جنبها الفرش وصلب ، وشرع يصنع النعش .

ولما أتم النعش ، لبس منظاره وتناول دفتر الخسائر فكتب فيه ثلاثة روبلات وأربعين كوبيكا — ثمن نعش للعجوز « مارفا إيفانوفنا » .

وأرسل زفرة حارة ، ولبثت العجوز على فراشها طول النهار صامتة مغمضة الأجفان ساكنة ، ولما رنقت للمغيب شمس الأصيل ، نادت شيخها فجأة ونظرت اليه نظرة فرح وابتهاج ثم سألته قائلة :

« يا كوف ! أتذكر أن الله سبحانه وتعالى قد كان رزقنا ، منذ خمسين عاماً ، غلاماً أصفر الشعر ؟ فى ذلك العهد كنا نطيل الجلوس على حافة النهر ، نهتف بالأغانى ونسجع بالألحان ، تحت الكروم » ثم ضحكت ضحكة

مرة أليمة وقالت : « لقد مات ذلك الطفل » .

فأقبل « يا كوف » يكد ذاكرته ويجهدها ، ولكنه لم يستطع أن يتذكر الطفل ولا حافة النهر ولا الكروم ، فقال لها :

« هذا خبال من بنات أوهامك » .

وقرب الصباح ماتت « مارفا » فاجتمعت عجائز الحى فغسلنها وكفنها وأودعنها النعش ، ومن باب الاقتصاد صلى عليها « يا كوف » بنفسه فوفر أجر المنشد ، ولم يدفع ثمناً للقبر ، لأنه أتاه « نقوطاً » من التربى ، وكان بينهما مودة وإخاء ، وتقدم أربعة من الفلاحين فاحتملوا النعش إلى الضريح ، ليس طمعاً فى الأجرة بل فى الأجر والثواب . . . وشيع الجنازة خليط من العجائز والشحاذين ، وثلاثة من أولياء الله المجاذيب ، وكل من مرت به الجنازة كان يقف من هيبة الموت ويصلب خشية لله وخشوعا . . . وضاعف سرور « يا كوف » وفرحه أن النعش كان بديع الشكل متقن الصنعة محكم البناء ، ولما ودع زوجته « مارفا » الوداع الأخير نقر بأصابعه على النعش وقال : « حتة نظيفة ، وايم الله ! » .

غير أنه فى أثناء عودته من المقابر أصابه اكتئاب شديد ، فأحس بهراً فى أنفاسه وخوراً فى ركبتيه وساقيه ، وحمى فى رأسه ، وانتابه ظمأ وغليل ، وهجمت على قلبه الهواجس والبلابل ، شتى الصنوف والألوان ، وتذكر ثانية أنه لم تكن منه قط طول حياته عاطفة رحمة ولا حنان على « مارفا » — لقد أهملها ولم يعرها أدنى اهتمام ولا عناية كما لو كانت هرة أو كلبة ، ومع

ذلك ، فلقد كانت تعنى به العناية كلها ، تنظف داره ، وتوقد ناره ، وتطبخ غذاءه ، وترقع كساءه ، وتحمل إليه الماء من الضاحية ، وتكسر حطب الوقود بيد واهنة واهية ، وإذا انقلب إليها آخر الليل من عرس أو وليمة يترنح سكراً أخذت منه الكمنجة فعلقتها على الحائط بكل احترام ، وأرقدته فى فراشه بكل ترفق وتلطف وكل ذلك فى صمت وهدوء ، وعلى وجهها آية القلق والإشفاق ، والعطف والبر والحنان .

وقدم « روتشيلد » على « يا كوف » فحياه منحنياً إليه مبتسما ، وقال :

لقد كنت أبحث عنك يا عمى ، إن رئيسنا « شاكيس » يهديك أزكى تحياته ويسألك أن تذهب إليه فى الحال » .

فى تلك اللحظة لم تكن نفس « يا كوف » ترتاح إلى الطرب والغناء ، لقد كان بوده أن يبكى وينتحب — فقال لليهودى :

« امض عنى ، عفا الله عنك » .

فثبت « روتشيلد » مكانه ، وضاق « يا كوف » به ذرعا ، فمضى وتركه ، فأقبل « روتشيلد » يعدو أمامه ويصيح .

« ويحك يا « يا كوف » ، إن الرئيس يطلبك ، أما تخشى غضبه ، إنه يأمرك أن توافيه فى الحال ! » .

فصاح « يا كوف » :

« ما بالك تؤذينى بلجاجتك وإلحاحك ؟ امض عنى ، لا قدس الله روحك ! » .

فغضب اليهودى أيضا ، وصاح .

« قدك ، اتئب ، أربيت فى غلوائك ! لا تحملنى على أن أقذف بك وراء هذا السور ! » .

فزمجر « ياكوف » ، وحمل عليه ، صائحاً .

« اذهب من وجهى و إلا أوردتك حتفك ! » .

فطار اليهودى من أمامه ، يسلم للريح ساقيه ، وشاهد هذه الحادثة عصبة من الصبيان فأصابوا فيها تفكهة وملهاة ، فأقبلوا يعدون خلف «روتشيلد» و يصيحون ! اليهودى ! اليهودى ! وانضم إليهم طائفة من الكلاب تنبح ، وسمع ضجيج قهقهة أعقبه صفيرة ، واشتد نباح الكلاب وتضاعف وكأن كلبا عض « روتشيلد » إذ سمعت منه إذ ذاك صرخة عالية .

وانطلق « ياكوف » يتمشى فى المرعى ، ثم خرج إلى ضواحى البلدة ، وصبيان الشوارع تصيح وراءه .

« برونز ! برونز ! » وجاء النهر ترفرف فوقه أبابيل الطير ، وتسبح عليه أسراب البط ، وقد احتدمت جمرة النهار ، وصفحة الماء من وهج الشعاع تعشى العيون ، وعلى حفافى النهر ولدان يلعبون ، فلما أبصروه صاحوا به « برونز ! برونز ! » و بعد مسافة أتى كرمة مهدلة الأفنان . . . . . فثار من أعماق ذاكرته شبح طفل صغير أصفر الشعر — ذاك الذى ذكرته به « مارفا » ، عجباً عجباً ! ها هى الكرمة التى كان يحبو من حولها وليدهم ذو اللمة الصفراء فى غابر الأزمان ، ها هى الكومة بذاتها ، سقى منابتها

الغمام ! لقد أسنت وشاخت وقد فت فى عضدها الهرم وأوهنتها صروف الزمان !

وجلس تحتها « يا كوف » وشرع يتذكر الماضى ، فى ذلك العهد الغابر كان صدر النهر حافلا بالقوارب والزوارق ، أما الآن فهو مقفر إلا من أسراب البط البحاء ، وهو أصفى وأملس من المرآة .

جعل يعجب من نفسه كيف لم يخطر بباله قط أثناء الخمسين عاماً الماضية أن يأتى هذا النهر فيصيد من أسماكه ما يعود عليه بالأرباح الجمة ، ثم يودع أرباحه البنك ، وكيف لم يستأجر زورقاً فيذهب عليه من أول النهر إلى آخره يشنف أسماع الساكنين على ضفافه ينتقل بكمنجته من دار لأخرى يستدر الرزق من أوتارها ، ولم لم يحاول الكسب من اتخاذ سفن الشحن على النهر لقد كان ذلك أدر عليه وأجدى من صناعة النعوش . . . . لم لم يتعاط تربية البط والأوز فيذبحها ثم يبعث بها — إبان الشتاء — إلى موسكو ، لا درره ، ولا كثر الله خيره — وقبحه الله من مأفون أحمق ، إن مكسب الريش وحده ما كان ليقل عن عشرين روبلا فى العام ، ولكنه — أضل الله سعيه — قد أضاع وقته النفيس سدى ، لقد بدد أيام عمره هباء . . . . أية خسائر على خسائر ، ما أكثر هذه الخسائر واهاً له ثم واهاً واهاً ! لو كان الله قد أراد به خيراً لجمع له تلك الصناعات الأربع : صيد الأسماك ، والتجول على النهر عزفاً بالكمنجة ، وتسيير الزوارق وتربية الأوز ، إذن لكان من الموسرين أرباب النعمة والثراء ، آه ! أية ثروة كانت تصبح

فى يديه ! ولكنه لم يصب من ذاك شيئاً ، حتى ولا فى الأحلام ! لقد مرت به الحياة جرداء مقفرة ، وعرة مرة ، وقد خابت منها قداحة ، وأثخنت جراحه ، ولم يفز منها — ولا بتنشيقة ، . . . . لقد أصبح ولا شىء أمامه فإذا التفت خلفه لم يجد سوى الخسائر ، الخسائر ، الخسائر ! يا للذكريات الأليمة ! لقد أرجفت بدنه رعدة وقشعريرة .

عجباً لهذه الحياة ، أفلا بد يصاب المرء فيها بالخسائر ؟ أما من سبيل إلى تحاشى الخسائر ؟ لأية علة لا يزال الناس يقترفون المآثم والجرائم ؟ ولأى سبب جعل يا كوف طول حياته يسىء إلى امرأته ويؤذيها ، ويذيقها العذاب ألواناً ، وما الذى اضطره فى ذاك اليوم إلى سب اليهودى وتقريعه ، وإلى إخافته وترويعه ؟ ولماذا ترى الناس يلذ لأحدهم أن ينغص على أخيه لذته ، ويؤلم أحدهم عجزه عن أن يؤلم الآخر ، وجعل همهم أن يمنع بعضهم بعضاً من الصفو والراحة أى خسارة على عباد الله من ذلك ! أى خسارة . فادحة ! ولولا الأحقاد والضغائن لأفاء الناس بعضهم على بعض أجزل الأرباح والفوائد .

وفى الليل تواترت على مخيلته صنوف الأحلام تمثل له الطفل ذا الشعر الأصفر والنهر وضفافه والكرمة ، والأسماك المصيدة والأوز المذبوح ، ووجه مارفاً بادياً من أحد جانبيه كأنه وجه عصفور يريد أن يشرب ، ووجه روتشلد الأصفر الحقير ، وشتى وجوه أخرى تتهاوى من كل صوب وتتصاعد وتتيامن وتتياسر ، وكلها تتشاكى الخسائر ، فبات يتقلب على جنبيه

كالسليم المسهد ، وغادر فراشه اثنتى عشرة مرة ليعزف على الكمنجة .

وقام فى الصباح مريضاً ، فمضى إلى المستشفى فأوصاه الطبيب ذاته أن يستعمل المكمدات الباردة والسفوف واستدل من وجه الطبيب ولهجته على أن الحالة خطيرة ، وأنه لا ثمرة فى السفوف ولا المكمدات وفى أثناء عودته إلى الدار ذكر الموت فلم ير فيه إلا فائدة وغنيمة ، إذ ليس بعد الممات اضطرار إلى مأكل أو مشرب أو ملبس ، ولا إلى دفع رسوم أو ضرائب ، ولا إلى مشاغبة الناس ومشاكستهم ، وإذ كانت رقدة الموت ليست إلى عام ، بل إلى الآلاف المؤلفة من الأعوام والملايين ، فلو حسبنا أرباح الموت لما أحصيناها ، إذ كانت فوق كل عد وإحصاء ، . . . . . أجل ، الحياة خسارة والموت ربح ، هذه الحقيقة ، ولكنها مرة مضاضة ، واحسرتاه وواكرباه ! لأى حكمة أزلية نرى الحياة التى لا تمنح الإنسان إلا مرة واحدة تمر به ثم تفارقه بلا ربح ولا ثمرة ؟

لم يسؤه فراق الحياة ، ولكنه لما وصل إلى داره وأبصر الكمنجة نالته لوعة وأوقدت على كبده حرقة وغليل ، ليس فى مقدوره أن يحمل الكمنجة معه إلى قبره ، سيتركها منفردة كئيبة تحن إليه وتشتاقه ، وستذبل من بعده وتذوى كالشجرة الكريمة ذهب كالؤها وساقيها ، فناء كلها الحياة وضياع !

ألا كل شىء ماخلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

غادر يا كوف حجرته ، وجلس على باب كوخه ، فاحتضن الكمنجة يضمها إلى صدره ويحنو عليها حنو المرضع على الفطيم ، وتذكر حياته

الضائعة الخاسرة ، ثم انبرى يعزف ، ولا يدرى ما يعزف ، ولكنه لحن شجىّ وصوت حزين ، ظلت عليه دموع عينيه تتبارى .

وكلما ازداد فكرة وأدكاراً ، ازداد عويل الكمنجة لوعة ، والدموع انهماراً .

وجاء اليهودى روتشيلد يسعى خائفاً وجلا فناداه يا كوف بصوت عطوف « ادن منى ، لا بأس عليك » وأومأ إليه أن يدنو .

« تعال أيها الصديق ! »

فرمقه اليهودى بعين الحذر والريبة ، ثم تقدم ، ووقف منه على عشرين ذراعاً ، وقال :

« اكفف عنى بادرة يدك ولسانك ، لقد أرسلنى إليك الرئيس ثانية ، قال لى ، أمض إلى يا كوف فأبلغه أننا إليه فى حاجة ، لا يستقيم لنا أمر من دونه ، . . . . . والواقع أن أمامنا عرساً ، فى يوم الأربعاء القادم ، وستكون حفلة باهرة »

قال يا كوف ، متبعاً مبهوراً :

« لا أستطيع يا صديقى ، إنى مريض »

وشرع يعزف وهطل الدمع من مقلتيه على الكمنجة وأرهف اليهودى أذنيه يصغى ، ويداه على صدره : وأرسل صوت الكمنجة هزة فى بدنه ، ولاح على وجهه سيما الحزن والجوى ، فجعل يقلب مقلتيه فى حجاجيه كمن يعانى لذة أليمة وعذاباً عذباً وطرباً موجعاً ، وصاح « الله أكبر » همت الدموع على خديه وجلبابه الأخضر .

انصرف اليهودى روتشلد ، ولزم يا كوف الفراش طول يومه ولما حضر القسيس للاعتراف مساء ، فسأله هل يذكر من خطاياه شيئاً خطيراً ، أقبل يكد ذاكرته الخائرة فتذكر وجه مارفا الحزين الشاحب ، وصرخة اليهودى من عضة الكلب ، وقال بصوت لا يكاد يسمع « أعط الكمنجة إلى اليهودى روتشلد »

قال القسيس « سأفعل »

مات يا كوف وورث روتشلد كمنجته :

والآن يتساءل أهل البلدة ، كيف أحرز روتشلد تلك الكمنجة العجيبة هل حازها ابتياعاً أو سرقة أو استهداء .

لقد ترك روتشلد الناى منذ زمن مديد ، فهو لا يستعمل اليوم غير الكمنجة ، يبعث من أوتارها أمثال ما كان يبعث من الناى من حزين الألحان وشجى الأنغام ، غير أنه متى حاول أن يردد ما سمعه من عزفات يا كوف عند آخر عهده به وهو جالس على باب كوخه ، أرسل على سامعيه من حزين الأصوات ما يستدر الدموع من أقساهم مهجة وأعصاهم مقلة ، وتراه هو نفسه ، إذ ذاك ، يقلب عينيه ويصيح « الله أكبر ! » وهذه النغمة الجديدة « نغمة يا كوف المحتضر » قد صادفت هوى فى جميع القلوب وذاع صيتها فى البلدة ، حتى أصبح روتشلد بفضلها لا تغبه الدعوات من سراة البلدة وأعيانها وموظفيها وتجارها ، لفرط شغفهم بسماعها ، — كلما أعادها عليهم استعادوا ، أو زادهم منها استزادوا .

وأثرى منها روتشلد ومات ربها شحاذاً .

الصبيـــان

للقصصى الروسى أنطون تشيكوف

صاح أحد الخدم فى ساحة الدار :

« لقد جاء « فولوديا ! » فصاحت الخادمة « ناتاليـا » مسرعة إلى غرفة الطعام »

« أوقد جاء « فولوديا » ؟ وافرحتاه ؟ »

وكان أفراد الأسرة كلهم ينتظرون مقدم ولدهم وقرة أعينهم « فولوديا » من ساعة لأخرى فأسرعوا جميعاً إلى النوافذ ، وكان على الباب مركبة بثلاثة جياد ، وكانت خالية ، إذ كان « فولوديا » قد تركها ومضى إلى الصالة حيث كان ينضو برنسه بأنامل حمراء من شدة البرد رجافة ، وكان رداؤه المدرسى وقلنسوته وحذاؤه كلها فى غلائل من الثلج بيضاء ناصعة . . . وكان شخصه برمته من فرعه إلى قدمه تفوح منه رائحة الثلج الغضة الرطيبة ، فكان منظره يبعث فى الناظرين رعشة وقشعريرة .

وأسرعت أمه وخالته لعناقه وتقبيله وهرولت نحوه الخادمة « ناتاليا » فاكبت على قدميه تنزع حذاءه ، وأقبلت البنات أخواته يتصايحن ويتصارخن وصرت الأبواب ، واصطخبت وأسرع الوالد إلى ابنه والمقص فى يده ، فصاح .

« لم لم تحضر بالأمس حسب الموعد ؟ لقد عيل صبرنا منذ الأمس فى انتظارك ، أقدمت سالما من كل سوء ؟ أكانت رحلتك ميمونة ، عجبا لكم (مخاطبا أفراد الاسرة) ما بالكم تحدقون به إحداق السوار بالمعصم ؟ ألا ترفهون عنه ريثما يسلم على أبيه الذى يذوب شوقا إلى عناقه وتقبيله ؟ دعوه يلثم أباه و يضمه . . . فانى على أية حال أبوه ؟ »

« بو . . وو . . بووو . . . » كذلك نبح الكلب الضخم الجسيم « ميلورد » بصوت عميق أجش ، وشرع ينقر على « الكنب » والجدران والمقاعد بطرف ذيله .

ومرت خمس دقائق فى هرج ومرج ، ولجب وصخب ، ولما سكن زلزال الفرح وفترت زوبعة السرور ، أدركت الأسرة أن هنالك خلاف ابنهم فولوريا مخلوقا صغيراً آخر ملفوفا فى « شال » ومعطف و برنس وفى غلائل من البرد والثلج ، وكان هذا الصبى واقفاً فى زاوية من المكان فى منتهى الوقار والرزانة .

فهمست الأم إلى ابنها مستفسرة .

« فولوديا ، حبيبى ، من هذا ؟ »

فصاح فولوديا .

« آه ! هذا هو اسمحوا لى أن أقدم إليكم صديقى « لينتيلوف » من تلاميذ السنة الثانية . . . لقد جئت به ليقضى أجازة العيد هنا . »

فقال الوالد فى احتفاء وترحاب .

« أهلا وسهلا ؟ يسرنا والله ، . . . تقدم ياعزيزى ، (إلى الخادمة) ناتاليا ؟ ساعديه على نضو ملابسه . العياذ بالله من هذا الكلب ؟ اطردوه ؟ إنى لا أطيقه » .

و بعد دقائق كان « فولوديا » وصاحبه « لينتيلوف » جالسين على مائدة الشاى . . . وكانت شمس الشتاء المدنفة تخترق شبكات الثلج المطروحة على زجاج النوافذ ، فتسطع على إبريق الشاى وأقداحه ، وكانت الغرفة دافئة ، وخيل إلى الصبيين أن الدفء والبرد كانا تحت جلدهما يعتركان ، وفى عروقهما يعتلجان .

قال الوالد بصوت فيه هزة الغناء ونبرة الألحان ، وهو يلف سيجارة « الحمد لله ، عما قليل ننعم بعيد الميلاد . . . خذ قدحاً آخر من الشاى يامستر لينتيلوف ، خذ كفايتك ، أنت فى بيتك و بين أهلك . . . لا خجل ولا احتشام . . . الكلفة ممنوعة ؟ » .

وكان على المائدة البنات الثلاث ، اخوات « فولوديا » : « كاتيا » و « سونيا » و « ماشا » (الكبرى فى الحادية عشرة) وكن يد من النظر إلى الضيف الجديد لا يحولن عنه أبصارهن .

كان « لينتيلوف » هذا فى مثل سن «فولوديا» وجرمه ، ولكن لم يكن له جمال « فولوديا » وقسامته ولا استدارة وجهه وصفاء بشرته ، بل كان ضيق العينين ، غليظ الشفتين ، برأس كالفرشة واقف الشعر ، لقد كان فى الواقع قبيح الصورة ، ولولا تجمله بالثياب المدرسية لحسبته ابن دلالة أو

طباخة أو غسالة ، وكان عابس الوجه مر بده ، وجلس صامتاً لا ينبس ، ولم يبتسم قط ، فكان من مجموعة هذه الصفات المرعبة ما ألقى الهيبة له فى صدور البنات الثلاث حتى قلن لأنفسهن «هذا الصبى لا بد أن يكون نابغة كبيراً وعالماً نحريراً» وكأنما كان طول الوقت يفكر فى مسألة خطيرة ، مستغرقا فى لجة من خواطره وتأملاته — فكان كلما خوطب ، انتفض كالمذعور ، واستعاد السؤال من سائله .

وآنس البنات أيضاً أن أخاهم « فولوديا » كان — على خلاف عادته من الثرثرة والخفة والمراح — ساكن الحركة واجماً مطرقا لا يكاد ينطق أو يبتسم ، وكأنه لم يسره ولم يفرحه أوبته إلى أهله وداره ، وطول مدة بقائه على مائدة الشاى لم يوجه إلى اخواته سوى كلمة واحدة ، وتلك الكلمة كانت من الغرابة بمكان — لقد قال لهن :

« إنهم لا يشربون الشاى فى بلاد كاليفورنيا . . . . . إنما يشربون « الجن » .

وكان « فولوديا » كصاحبه مطرقاً ، وفى غمرات فكره مستغرقاً ، وكان تبادل النظرات بين الصبيين يدل على أن أفكارهما واحدة .

و بعد الشاى ذهبوا جميعاً إلي حجرة الجلوس ، فاستأنف البنات وأبوهم العمل الذى كان شغلهم عنه قدوم الصبيين ، وكانوا قبل وصوله يصنعون أزهاراً لشجرة عيد الميلاد من مختلف ألوان الورق ، وهى شغلة جذابة صخابة ، فكلما تمت زهرة ضج البنات عجباً ، وصحن طرباً ، بل هتفن إجلالا

وإكباراً ، كأن تلك الزهرة المصنوعة قد هبطت عليهن من السماء ، وكان أبوهن أشد فرحة منهن وإعجابا ، وكان من حين لآخر يرمى بالمقص (الذى كان يصنع به الأزهار) إلى الأرض يزعم إنه مثلوم الحد كليل الشفرتين ، وجعلت الأم تدخل عليهم من آن لآن ، تصيح مضطربة .

« من أخذ مقصى ويلى منك يا رجل (تخاطب زوجها) لا تزال تأخذ مقصى » .

فيتصنع الزوج الاستياء والأسف ويصيح .

« لطفك اللهم وغوثك ؟ تضنين على حتى بمقص لا يساوى درهماً ؟ »

ولكن لا تمر على ذلك لحظة حتى يعود إلى سيرته الأولى من السرور والطرب والمراح .

فى أجازة عيد الميلاد الماضى ، كان فولوديا يشارك أباه وإخواته فى تجهيز شجرة العيد ، أو كان يخرج إلى فناء البيت لينظر الصبيان يصنعون من الثلج جبالا ، أما هذه المرة فقد ضرب صفحاً عن كل هذه الألاعيب ، وانتبذ بصديقه لينتيلوف زاوية من الحجرة ، وأخذا يتهامسان ، ثم إنهما تناولا مصوراً جغرافياً ففتحاه ، وأقبلا يتأملان إحدى خرائطه .

قال « لينتيلوف » بصوت منخفض .

« نسافر من ههنا إلى مدينة « برم » أولا ، ومنها إلى « تيومين » ثم إلى « تومسك » . . . . ثم . . . . إلى « كامايشاتكا » . . . وبعد ذلك نعبر بوغاز « بيرنج » على القوارب . . . وإذ ذاك نصير فى أميركا . . .

وهناك نجد الجم العديد من الحيوانات ذات الفراء . . . »

قال فولوديا مستفهماً .

« وكاليفورنيا ؟ » .

« كاليفورنيا أسفل من ذاك ، ارح نفسك من ناحية كاليفورنيا وخلافها ما علينا إلا أن نبلغ أمريكا ، وبعد ذلك تكون كاليفورنيا وسواها غير بعيد . . . وهنالك يمكننا أن نعيش أرغد عيش من صيد الوحوش ومن السلب والنهب . »

لبث « لينتيلوف » طول نهاره يتجنب مخالطة البنات الصغيرات ، وكأنه ينظر إليهن بعين الريبة واتفق فى المساء أنه ترك وحده بينهن بضع دقائق ، فرأى أنه من سوء الأدب وقلة الذوق أن يظل صامتاً ، فشرع يسلك حلقه ثم حك يسراه بيمناه ، وعبس فى وجه كبرى البنات « كاتيا » وسألها قائلا :

« هل قرأت كتاب الجغرافى العظيم « ماينى ريد ؟ »

« كلا ، لم أقرأه . . . اسمع ؟ هل تحسن أن تلعب لعبة « سكيتنج » ؟ (الزحف على الثلج) » .

لم يحر جوابا . . . ولكنه ارتد إلى هواجسه وأفكاره ، ونفخ شدقيه وزفر زفرة طويلة كالمتململ من شدة الحر ، ثم نظر ثانية إلى « كاتيا » وقال

« فى سهول أمريكا إذا مر ربرب من جاموس الوحش « البيزون » ارتجت الأرض وزلزلت ، وذعر من هول ركضها الإنسان والحيوان ؟ »

ثم ابتسم ارتياحا لتخيلاته واسترسل .

« والهنود الحمر هنالك يهاجمون القطارات فينهبونها ، ولكن آفة هذه البلاد بعوضها »

« وماذا عن البعوض هنالك ؟ »

« هو كالنمل ولكنه ذو أجنحة ، ولسعته منكرة . . . . . أتدرين من أنا ؟ »

« بلا شك ، أنت المستر لينتيلوف »

« كلا ، إنما أنا البطل الزعيم « مونتى هومو » الملقب «مخلب الصقر » « أمير الجيش المظفر المنصور »

فنظرت إليه صغرى البنات « ماشا » ثم قالت له ، ولم تفهم كلمة واحدة من كلامه .

« كنا بالأمس طابخين عدس »

« هذه الكلمات الغامضة المبهمة من «لينتيلوف» وكثرة التهامس والتسار بينه و بين فولوديا ، و إضراب فولوديا عن عادته من اللعب والضحك ، وطول تفكيره و إطراقه حير البنات ورابهن وأثار فى صدورهن الشكوك والشبهات فبدأن يشددن على الصبيين الرقابة ، فلما ذهبا إلى مرقدهما موهناً زحف البنات إلى باب المرقد وأرهفن السمع ينصتن إلى ما يدور بينهما من الحديث فماذا سمعن ؟ . . العجب العجاب ! سمعن الصبيين يرسمان الخطط للفرار إلى أميركا ابتغاء البحث عما بها من كنوز الذهب ، وكانا قد جهزا لديهما

كل ما يلزمهما من المعدات لتلك الرحلة : مسدس، وسكاكين، وبسكويت وعدسة محرقة تقوم مقام الكبريت ، وبوصلة وربع ريال ، لقد بلغهما أنه عليهما أن يقطعا بضعة آلاف ميل يضطران فى خلالها إلى مكافحة الأسود والمتوحشين ... وبعد ذلك يحصلان على الذهب والعاج ، ويذبحان الأعداء ثم يصيران من فتاك اللصوص وقطاع الطريق ، فيشربان « الجن » والتبغ ، ثم يتزوجان من أجمل الفتيات ، ويُصير لهما عزب وأطيان .

وفى أثناء حوارهما كان يحمى بينهما وطيس الجدال أحياناً وتشتد المنازعة والمقاطعة وكان لينتيلوف يسمى نفسه « مونتى هومو ، مخلب الصقر » ويسمى فولوديا « أخى الأصفر الوجه » .

ولما عادت البنات إلى مرقدهن قالت الكبرى للصغريين .

« لا تبوحا لأمكما بادنى كلمة مما سمعتما آنفاً ، لئلا تمنع أخانا وصاحبه من الذهاب إلى تلك التى يسمونها «أمركا» ونحن يهمنا أن يذهبا ، فلعلهما يجلبان إلينا عند عودتهما هدية من الذهب والعاج » .

قضى « لينتيلوف » اليوم السابق لليلة الميلاد عاكفاً على خريطة آسيا يدون مذكرات وتعليقات ، وفى خلال ذلك كان « فولوديا » يجول فى حجرات المنزل لا يذوق طعاما ولا شرابا ، ووجهه مرهل منتفخ كأنما قد لسعته نحلة ، وفى أثناء تجولاته تلك ، وقف على صورة العذراء وصلب ، وقال :

« غفرانك اللهم ، فانى مذنب ! اللهم ولا تخل أمى التعسة المسكينة من عواطف مراحمك والطافك ؟ »

وفى المساء أجهش بالبكاء ، ولما سلم على أبيه قبل الذهاب إلى مرقده حضن أباه طويلا ، ثم ثنى بأمه وأخواته ، فأما الأختان الكبيرتان « كاتيا » و « سونيا » فكانتا تفهمان معنى ذلك، وتعرفان ما هنالك ، وأما الصغرى « ماشا » فكانت لا تعى ولا تفهم ، ولكن تلك الحركات من « فولوديا » كانت تحير لبها وتدهشها .

وكلما نظرت فى وجه « لينتيلوف » شرد ذهنها وقالت متنهدة :

« دادتى تقول إنه متى جاء الصوم أكلنا العدس والرجلة » .

وفى باكورة الصباح انسلت « كاتيا » و « سونيا » من فراشهما وذهبتا لتنظرا كيف يبدأ الصبيان الفرار إلى أميركا . . . فزحفتا إلى باب مرقدهما ثم وقفتا تصغيان .

وكان « لينتيلوف » يقول لزميله مغضباً .

« إذن أنت لا تريد أن ترحل ؟ خبرنى بصراحة : أذاهب انت ؟ »

فبكى فولوديا بكاء مراً ، وقال :

« ويحى ، ويحى ! كيف أذهب وأترك أمى المسكينة ثكلى معذبة تبكينى وتندب فقدى ! »

« يا أخى الأصفر الوجه ! أرجوك أن تشد عزمك للرحيل ، وتحث قدميك ؟ لقد أعلنت نيتك على السفر تحضنى عليه وتحثنى، وأراك ، إذ آن

الأوان ، قد فترت همتك وخارت عزيمتك ، وانفطر قلبك هلاعا ، وذهبت نفسك شعاعا ، فبئس الزميل أنت ، وقبح الله امرءاً يشركك فى أمره ، ويرجوك لتأييده ونصره ؟ »

« أنا . . . أنا . . . أنا لم تخر عزيمتى ولم تفتر همتى ، ولكنى . . . ولكنى أخاف على أمى المسكينة أن يقتلها الحزن من بعدى »

« أسمعنى كلمة واحدة ، أتذهب أم لا » أذهب . . . ولكن . . . امهلنى رويداً . . . أريد أن ألبث فى دارنا هذه قليلا »

« إذن أذهب وحدى . . . أو لست بقادر على الذهاب وحدى؟ أتظننى عاجزاً عن الرحيل منفرداً . . أفأنت من الجبن والوهن بهذه المنزلة ؟ . . . وتريد أن تصيد السباع وتقاتل الفرسان ؟ فأما وقد بلغ الأمر ذلك ، فاردد على — يا أخى الأصفر الوجه — سكاكينى ومسدسى وخراطيشى ، وهذا فراق ما بينى و بينك »

عند ذلك أغرق « فولوديا » فى البكاء وأفرط به انتحابه ، حتى لقد أجهشت أختاه بالبكاء أيضاً .

وتلا ذلك فترة سكوت واستأنف لينتيلوف القول .

« وهكذا لست بذاهب ؟ »

« أنا . . . أنا . . . أنا ذاهب ؟ »

« ارتد — إذن ملابسك »

ثم إن « لينتيلوف » أقبل على « فولوديا » يلاطفه ويداعبه ، ويطر به

بذكر عجائب الدنيا الجديدة وغرائبها ، تارة يحكى له زئير السباع وتارة صفير الباخرة ، ثم وعده كل ما يقع فى يده من العاج وجلود الأسود والفهود .

وهذا الصبى النحيل الضئيل الغائر العينين الشائك الشعر أدهش البنات وراعهن حتى حسبنه من عظماء الرجال ، لقد كان بطلا صنديداً فى رأيهن وشجاعاً مقداماً مقحاماً للمخاطرة مشاء على الأهوال ، وكان يزأر فيهز الحجرة حتى لقد كن ينتفضن بالباب ذعراً ، ويخيل إليهن أن أسداً يزأر ، لا إنساناً ولما عدن إلى غرفتهن ولبسن ثيابهن ، كانت عينا « كاتيا » تدمعان ، وقالت :

« إنى لأرتجف ذعراً »

وجرت الأمور على منوالها المعتاد حتى الساعة الثانية بعد الظهر حينما جلسوا إلى المائدة ، وعندئذ ظهر أن الصبيين ليسا فى الدار ، فأجرى عنهما البحث فى غرف الخدم وفى الإصطبل وفى الحديقة ، فلم يعثر لهما على أثر ثم امتد البحث فى أنحاء القرية كافة بلا ثمرة .

وفى ساعة الشاى كان الصبيان لا يزالان غائبين ، ولما حانت ساعة العشاء كانت والدة «فولوديا» فى أشد حالات الكرب والجزع ، لقد كانت تبكى وتنتحب .

و بعد موهن من البحث فى القرية ، وسعى الخدم على ضفاف النهر بالمصابيح مسافة بعيدة ، يا لله ! أى هرج ومرج ، وأية ضجة وضوضاء !

وفى اليوم التالى حضر ضابط من رجال الشرطة ، وحررت مذكرة فى غرفة الطعام وكانت الأم تبكى .

وإنهم لكذلك إذ وقفت بغتة مركبة على الباب .

وصاح صائح :

« لقد جاء فولوديا واندفعت « ناتاليا » فى غرفة الطعام تصيح « ها هو ذا المستر فولوديا ؟ »

« ونبح ميلورد »

« بؤوو ! بؤوو ! »

واتضح أن الصبيين أتيح لهما من اعترضهما ووقف مسيرهما فى بعض شوارع البلدة حيث كانا ينتقلان من دكان لدكان يحاولان الحصول على كمية من البارود .

ولما دخل « فولوديا » على أمه أجهش بالبكاء وارتمى فى أحضانها .

وفى أثناء ذلك كان البنات يرتعدن فزعا ولا يدرين ماذا عسى يقع بعد ذلك ، لقد رأين والدهن يذهب بأخيهن « فولوديا » وصاحبه لينتيلوف إلى مكتبه حيث لبث يتحدث إليهما طويلا .

قال :

« أكان يليق بكما أن تقترفا هذا الإثم ؟ . . . أرجو أن لا ينمى خبر ذلك إلى مدرستكما ، وإلا جزتكما عليه بالرفت لبئس ما صنعت يا مستر

لينتيلوف ، لقد أتيت منكراً خليق بك أن تتوب منه وتندم عليه ، كيف تجرأت على ذلك ، وأين بت البارحة » .

فأجاب لينتيلوف فى أنفة وكبرياء .

« بالمحطة » .

وذهب فولوديا إلى فراشه ، حيث عملت له مكمدات بالخل .

وأبرقوا إلى أسرة لينتيلوف ، فقدمت أمه فى اليوم التالى فاحتملته .

وظل لينتيلوف إلى ساعة ارتحاله رزيناً مطرقاً ، متجهماً عبوساً ، ولما تقدم لتوديع البنات لم ينبس إليهن بأدنى كلمة ، ولكنه تناول كتاب « كاتيا » من يدها وكتب على غلافه هذا التذكار « مونتى هومو ، مخلب الصقر ، أمير الجيش المظفر المنصور » .

الانتقام

للقصصى الروسى انطون تشيكوف

خرج « فيودر سيجيف » من داره ذات يوم هائماً على وجهه غضبان حنقاً ، يكاد من الغيظ يتميز ، . . . لقد ألفى زوجتـه مع رجل غريب فى منكر .

وما زال يعدو منتفض الأوصال مضطرباً ، حتى وقف على دكان أسلحة ، وقال فى نفسه :

لقد صحت نيتى ، لقد عزمت عزماً لا رجعة فيه ولو زلزلت الأرض زلزالها وانخسفت ! لقد انتهكت حرمة منزلى ، وابتذل فراشى ، ومزق أديم شرفى ! لقد غاض الوفاء ، وفاض الغدر ، لقد اندحرت الفضيلة ، وراحت الرذيلة مرفوعة اللواء منصورة ! فلا بد لى من الانتقام ولا مناص من الثأر ! سأقتلها أولا ، ثم عاشقها ثم أقتل نفسى ! »

« لم يشتر بعد المسدس الذى يريد أن يصنع به كل هذه الأعمال الخطيرة المرهوبة ، ولم يتفاوض مع صاحب المحل فى اشترائه ، ولـكنه أبصر فى ساحة خيـاله الدماء تجرى أنهاراً ، حول ثلاث جثث مضرجة بالنجيع مخضوبة ، وجماجم أفلاقا تنبثق منها أدمغتها ، وأبصر الناس جموعاً مزدحمة

من حول ذلك المشهد الدموى ، . . . وخيل لنفسه مع مزيد السرور والطرب أحزان الأهل والأقارب و بكاءهم ، و برحاء لوعة الخائنة فى آخر لحظاتها ، . . . وجعل يقرأ بناظر الوهم مقالات افتتاحية فى الجرائد السيارة عن خيانة الزوجات ، وحمية الأزواج الأشراف الأمجاد الذين يأبون أن تطل دماء شرفهم وعزتهم على مذبح الفجور والدعارة !

وأقبل صاحب الدكان — رجل صغير الجثة مستدير البطن ، متفرنس — يعرض عدداً جماً من المسدسات و يقلبها ، مبتسما فى حسن أدب وحفاوة ، وقال « الرأى عندى ياسيدى أن تأخذ هذا المسدس البديع ، طراز « سميث ووسون » فهو أحدث طراز ، وآخر اختراع ، وهو كلمة العلم الحاسمة فى موضوع الأسلحة ، . . . سبع طلقات . . . يصيب على مسافة ستمائة ياردة مهما أصاب أصمى فأردى ، . . . هذا و إنى ألفت نظرك يا سيدى ، إلى إتقان الصنعة ، ودقة التركيب وجمال الشكل ، آخر موضة ياسيدى ، . . . نبيع منه كل يوم نيفا وسبعين للصوص وقطاع الطريق والعشاق ، . . . مسدد الطلقات ياسيدى يخرج منه السهم حماماً عاجلا وموتاً ذريعا كأنما عناه القائل :

يخرج منه الحجر الكباس يمر لا يحبسه حباس
لا نافذ الطعن ولا تراس

وهو — بلا مبالغة — يقتل الزوجة الخائنة وعاشقها بطلقة واحدة . . . أما إذا كنت تريده للانتحار فلن تجد أكفل منه بذلك » .

وجذب التاجر زناد المسدس ، وتنفس فوق الخرطوم ، ثم فوق الفوهة وسددها ، متصنعاً أقصى غاية الطرب والابتهاج ، فلو اطلعت على وجهه المشرق البراق إذ ذاك لحسبت أن جل رغبته ومناه أن يرسل من ذاك المسدس طلقة فى رأسه تفتت دماغه بدداً .

وقال « فيودور سيجيف » :

« بكم هذا المسدس ؟ »

« بخمسة وأربعين روبلا »

« مه ! . . . هذا ثمن باهظ جداً »

« إذا كان الأمر كذلك ، فاسمح لى ياسيدى أن أقدم اليك صنفا آخر . . . أرخص بلا شك . . . وهاك أصنافا شتى ، فاختر من بينها ماتشاء . . . هاك مثلا طراز « ليفوشير » (ولكز التاجر وجهه ، آية على منتهى الازدراء والاشمئزاز) . . . ولكنه طراز عتيق جداً ياسيدى ، لا فائدة فيه للثائر المنتقم ، ولا يشتريه إلا السيدات المصابات بالهستريا ولا يفكر فى اقتنائه من يريد الا نتحار أو قتل زوجته ، أما طراز « سميث ووسون » فهو الصنف الذى ليس وراءه مطمح لطامح »

فقال « سيجيف » كاذبا فى قوله :

« لا أريد انتحاراً ولا قتل أى مخلوق إنما أريده لإخافة اللصوص . . »

« لا يهمنا لأى مقصد تشتريه ، ولو كنا نبحث فى مقاصد الناس وأغراضهم لاقفلنا المحل تونا وساعتنا ، وعلى كل حال فإن هذا الصنف الرخيص —

طراز « ليفوشير » لا يجدى فى إخافة اللصوص ، فإن صوته خافت ضعيف مكتوم ، وأقترح عليك أن تأخذ بدله الصنف المستعمل فى المبارزة — طراز « مورتيمار » فإنه أجهر صوتاً وأذهب صدى . . . »

عند ذلك خطر على بال « سيجيف » خاطر كلمح البرق إذ قال فى نفسه « أليس الأصوب أن أطلب الخائن للبراز ؟ ولكن ذلك تشريف له وإعظام لشأنه لا يستحقه ذلك الكلب الدنس ، . . . والأوغاد أمثاله لا ينبغى أن يقتلوا إلا قتلة الكلاب . . . »

وعرض التاجر عليه أكداساً مكدسة من المسدسات ، كان أبدعها وأروعها طراز « سميث ووسون » ، فالتقط « سيجيف » واحداً من ذاك الطراز وأجال فيه بصره ، ثم أطرق يفكر ، وصور له خياله الطلقات الجهنمية مرسلة من المسدس ، ودماء الخائنين منفجرة ، وجسديهما داميين مضرجين ، والدم يسيل على الفراش والبساط وأطراف الغادرة الفاجرة ترتجف وتتشنج فى سكرة الموت ، . . . ولكن كل هذه المناظر الهائلة والصور الشنعاء لم تستطع شفاء غليله ، أجل أن منظر الدم والهول والفظاعة والبكاء والعويل ، لم يلطف من سورة غضبه ، فألفى نفسه مضطراً إلى التفكير فى صنف آخر من الانتقام يكون أشد وقعاً ، وأفظع هولا .

فقال فى نفسه :

« كلا ! كلا ! . . . بل أقتل العاشق الوغد ثم اقتل نفسى ، أما هى فأتركها تعيش ، أجل ، وبذلك أدعها تتجرع غصة الندم وتوبيخ الضمير ،

وسخط الناس ومقتهم واحتقارهم ، وهذا لعمرى أنكى لها وأوجع من قتلها »

ثم صور له الخيال مصرعه وجنازته ومأتمه ، — ونظر بعين الوهم إلى نفسه فى الاكفان مسجى ، موضوعاً فى النعش ، وعلى فمه ابتسامة المستكين المستسلم لقضاء الله ، ابتسامة الذاهب ضحية كيد النساء وفريسة خياتهن وغدرهن ، وتصور امرأته مصفرة الوجه شاخصة البصر شاردة اللب ، تأكل يديها حسرة وندما ، تشيع جنازته إلى مقره الأخير ، وتتمنى لو تنشق الأرض فتبلعها ، تواريا من نظرات الجمهور الفتاكة الصاعقة .

وقطع التاجر سلسلة تخيلاته فقال :

« يخيل إلى سيدى أنك ترتاح إلى طراز « سميث ووسون » فإن كنت تستكثر ثمنه فسأنقصه خمسة روبلات ... على أن لدى أصنافاً أرخص »

ثم استدار الرجل الرشيق المتفرنس على عقبيه ، بخفة الجندى فى الطابور ، واستنزل من بعض الرفوف مجموعة جديدة من المسدسات ، وقال :

« تأمل ياسيدى ، بثلاثين روبلا ، فى غاية الرخص ؛ لا سيما وقد زادت الرسوم الجمركية زيادة فاحشة ، . . . سيدى لشد ما أخطأت الحكومة فى ذلك ، وإنها لسياسة خرقاء ، وإنى وإن كنت من حزب المحافظين لناقم عليها أشد النقمة ، لشد ما ضيقت على الطبقات الفقيرة بصنعها هذا ، لقد تركتهم لا يملكون إلا اقتناء الأسلحة الرديئة ، والمسدس الردىء ياسيدى ، إذا أطلقه الرجل على زوجته ، كان جديراً أن يصيبه هو ويترك الزوجة الأثيمة سليمة » .

فتألم « سيجيف » فجأة لمجرد تخيله أنه هو الذى يصاب وتفلت من القتل زوجته ، فتفوته فرحة الشماتة والتشفى ، ويحرم لذة النظر اليها وهى تتخبط فى دمائها ، وتتجرع غصص الموت بعينه والانتقام لا تعرف لذته إلا إذا شاهد الإنسان ثمراته وتذوق حلاوتها ، وأية ثمرة فيه إذا كان الإنسان مسجى فى نعشه ، لايسمع ولا يرى ؟

فقال « سيجيف » فى نفسه :

« أليس الأصوب أن أقتل العاشق المجرم ثم أمشى فى جنازته ، فأشفى غليلى ، و بعد ذلك أقتل نفسى ؟ على أنهم سيقبضون على قبل تشييع الجنازة . وهكذا أقتله . . . وستبقى هى حية وأذهب أنا .. مؤقتاً ... إلى السجن .. ولا بأس . . سيكون لدى متسع من الوقت للانتحار . . لن تفوتنى هذه الفرصة . . . وفى الاعتقال بعد هذه الميزة ، وهى أنى سأتمكن من اطلاع المحكمة والجمهور على خفايا الأمر ، فأكشف عن خبائث تلك الخائنة وعوراتها ، أما انتحارى فسيفسح للعاهرة مجال الإفك والزور فتفترى على الأكاذيب ، ولن تعدم وسيلة لتبرئة نفسها ، و إلقاء الجريمة على رأسى ، وتبوء هى بالشرف الرفيع والعرض النقى ، وأظل أنا ضحكة الناس وسخريتهم مضغة فى الأفواه ، وأحدوثة تروى . . . أما إذا بقيت حياً . . »

و بعد دقيقة كان يقول فى نفسه .

« أجل . . أن قتلت نفسى أنحى على باللائمة . . هذا ، والانتحار شيمة الجبان . . ولماذا أنتحر ، وأى شىء يحملنى على الانتحار ؟ بناء على ذلك

سأقتل الرجل وأتركها تعيش ، ثم أستقبل المحاكمة بجأش رابط وجنان جرىء ، وكذلك أقدم للمحاكمة ، وتحضر هى شاهدة ، . . وكأنى والله أرى بعينى رأسى فرط حيرتها إذ ذاك وارتباكها ، وما سيجللها من الخزى والعار والفضيحة ... وأكسب أنا عطف المحكمة والصحافة والرأى العام »

وفى أثناء تخيلاته هذه كان التاجر يقلب البضائع ، ورأى من الواجب عليه أن يشرح لزبونه صفاتها ومزاياها ، قال :

« هاك صنفاً إنكليزيا — طرازاً جديداً ، وارد الأسبوع الماضى ، ولكنى ألفت نظرك ياسيدى إلى أن أمثال هذا الصنف لا تكاد تذكر بجانب طراز « سميث ووسون » . . إنه منذ اسبوع جاءنا ضابط فاشترى منا مسدساً من هذا الطراز ثم ذهب فأطلقه على عاشق زوجته . . أفتصدق ياسيدى أن الرصاصة أصابت الرجل فمرقت من ظهره إلى الشمعدان الفضى فاخترقته فنفذت من عمود السرير فاصطدمت بالبيانو ثم ارتدت عنه فاخترقت الكلب الرومى ثم خدشت فى النهاية ذراع الزوجة ، وتلك لعمرك خير شهادة على جودة ذلك الطراز ، والضابط الآن معتقل ، وسيحكم عليه لا شك بالأشغال الشاقة المؤبدة فى سجون سيبريا ، وفى هذا الحكم حيف بين ، ولكن ما الحيلة وهيئة المحكمة ورجال القضاء كلهم أعوان للعشاق على الأزواج ، وكأنهم فى أعماق ضمائرهم يحبذون أن يعشق الرجل امرأة صاحبه ، ولا عجب ، فالقضاة وهيئة المحكمة والنائب العمومى وسائر رجال القضاء كلهم يعيشون مع زوجات الناس ، ومن أسباب مسرتهم وراحتهم

أن ينقص عدد الأزواج فى الأقطار الروسية واحداً ، ولو أرسلت الحكومة جميع الأزواج إلى سجون سيبيريا لكان ذلك أقصى غاية المنى والمرام للمجتمع الروسى ، رحماك اللهم ، لقد ضاعت الآداب وفسدت الطباع وسقطت الهمم والمروءات ، وأصبح أحدهم يعيش مع امرأة صاحبه ، مثلما يدخن الرجل من سجاير صديقه ويقرأ كتب زميله ، وتجارتنا تزداد والحمد لله كساداً على توالى الأيام ، ولا يفهم من هذا أن الزوجات تزداد عفة ووفاء ، بل إن الأزواج — أعانهم الله وألهمهم الصبر والسلوان — يؤثرون الاستسلام لقضاء الله والتجلد لاحتمال المكروه ، وذلك خشية من صرامة القانون وعقوبة النفى المؤبد إلى سيبيريا »

عند ذلك قال « سيجيف » فى نفسه :

« أذهب إلى الأشغال الشاقة المؤبدة فى سيبيريا من أجل خنزير كهذا المجرم ؟ . . إن هذا الآ ضلال مبين ! . . هذا والله الحمق والسفه والجنون بعينه ! وما فى ذهابى إلى المنفى المؤبد إلا إعطاء الفاجرة الفرصة السانحة للتزوج ثانيـة وخيانة زوج آخر ، ستفوز فوزاً مبيناً ، وبناء على ذلك ، سأتركها تعيش ، وأترك عاشقها الأثيم أيضاً يعيش . . لن أقتل أحداً البتة . . بل على أن أفكر فى نوع آخر من الانتقام يكون أقرب إلى الصواب والحكمة ، . . ساعاقبهما باحتقارى . . ثم أسعى فى طلاقها »

قال التاجر وأنزل كوما آخر من المسدسات :

« هاك سيدى ! إنى ألفت نظرك إلى صنف آخر من السلاح كنت

نسيته ، إنه طراز عجيب مدهش ! . . ألمانى . . دعنى أطلعك على تركيب العدة » .

بعد هذا العزم الأخير والتصميم على الاكتفاء فى أمر الزوجة وعاشقها بعقوبة الاحتقار ، أصبحت المسدسات على اختلاف أصنافها لا لزوم لها البتة عند صاحبنا « سيجيف » . . ولكن التاجر جعل يزداد تحمساً فى تقريظ بضاعته ، ونشاطاً فى عرضها وتقليبها و إبداء محاسنها ومزاياها ، وشد ما أخجل « سيجيف » أن يرى الرجل يبح صوته و ينفخ أوداجه بلا جدوى ، و يكثر من الابتسامات والحفاوات بلا جدوى ، و يضيع أوقاته الثمينة بلا جدوى .

فقال سيجيف متلجلجاً « لا بأس ، لا بأس ، . . . س . . . س . . سآتيك دفعة أخرى . . . أو أبعث اليك برسول . . . »

ولا تسل عما أصاب التاجر من الهم والغم ، وما بدا على وجهه من آيات الكرب والحزن واليأس ، فتخلصاً من هذه الورطة رأى سيجيف أن يخفف مصيبة التاجر باشتراء سلعة ما مما هو معروض بالمحل ؟ وأجال بصره فى جدران المكان فاستقرت عينه على شبكة خضراء معلقة قرب الباب .

فقال :

« هذه . . . ما هذه ؟ » « هذه شبكة لاقتناص السمان » .

« كم ثمنها ؟ » « ثمانية روبلات ياسيدى » « لفها لى فى ورقة . وأسرع ! » ومضى بشبكة السمان و به من الخجل أضعاف ما به من الغيظ

الحـــلاق

للقصصى الروسى انطون تشيكوف

الصباح ، لم تبلغ الساعة السابعة ولكن دكان « مقار كورمتش » كان مفتوحاً ، وكان الحلاق « مقار » — وهو شاب فى الثالثة والعشرين من عمره قذر الجسم والملابس ملوث بالزيوت والكوزماتيك ولكنه متأنق فى زيه وملبسه — مكباً على ترتيب أدواته ، وعلم الله لم يكن بالدكان من أدوات تستدعى الترتيب ، ولكنه كان يتحلب عرقاً لشدة مجهوداته ، فكان آناً ينحت بأظافره ، وآونة يجلو ويصقل بخرقة وتارة يصطاد عنكبوتاً وأخرى حشرة .

وكانت دكانه صغيرة ضيقة وسخة ، ملطخة الجدران ، وبين النافذتين القذرتين المتحلبتين بقطرات الرطوبة ، باب رقيق مخلع لاينقطع صريره ، ومن فوقه جرس قد نسجت عليه الرطوبة كالقطيفة الخضراء يرسل من تلقاء ذاته دقات مريضه مبحوحة ، وعلى أحد الجدران مرآة لو نظرت فيها لوليت فراراً من شناعة صورتك لفرط ما تشوه من وجهك وتقلب من سحنتك ! وعلى المنضدة الصغيرة التى لايشبهها فى قذارتها ونضحها بالزيت والدهان إلا الحلاق نفسه — أمشاط ومقصات وموسى ، وما قيمته قرش

تعريفة من كوزماتيك الشارب ، ومثل ذلك من البودرة ومثلهما من الكولونيا ، والخلاصة أن دكان الحلاق كلها لاتساوى أكثر من ربع ريال .

يسمع صوت مختنق من الجرس ، ويدخل الدكان شيخ مسن فى كساء من جلد شاة ، ملفوف الرأس والرقبة فى شال امرأة .

هذا الرجل هو « إيراست إيفانتش » صديق أسرة الحلاق ، وقد كان حيناً ما خفيراً نظامياً ، وهو اليوم حداد بناحية « البركة الحمراء » .

وينادى الحلاق مسلماً :

« عم صباحاً ياولدى العزيز « مقاروشكا » ومقار هذا — أو كما يدعوه الشيخ مداعبة وتدليلا « مقاروشكا » — مكب على عمله منهمك فى ترتيب « لاشىء » .

ويقبل أحدهما الآخر ، وينزع الشيخ الشال الحريمى عن رأسه ويصلب على صدره ويقعد .

ثم يقول متنهداً مسلكا حلقه :

« ما أطول الطريق وما أبعد الشقة ! لست أمزح ! وأين يابنى حفظك الله « البركة الحمراء » من « بوابة كالوجا » ! هذا سفر طويل ! »

« كيف أصبحت ؟ »

— « بشر حال ياولدى ، لقد كنت محموماً » .

« ما أحسبك جاداً فى قولك ، محموم ! »

« بلى ، لقد لزمت الفراش ثلاثين يوماً ، وبلغت حد اليأس وقد حلقوا

شعرى ، ثم أخذ ينبت ثانية ، وأوصانى الطبيب أن أحلقه لينمو إلى حاله الأولى ، فقلت فى نفسى ما لهذا والله ألا ولدى مقار ، والأقربون أولى بالمعروف ، لا أنكر أن المسافة بعيدة جداً ، ولكن ماذا على من طولها ، وما هى بعد إلا فسحة » .

— « بكل ارتياح يا والدى . . . . . وعلى العين والرأس ، أقعد »

يقعد « إيراست إيفانتش » وينظر إلى نفسه فى المرآة وكأنما يسره منظره ، وتعكس المرآة صورة معوجة ملتوية معرجة ، مقلصة مشنجة ، بشفتين أو على الأصح بمشفرين غليظين ، وأنف عريض أفطس ، وعينين فى الجبهة ، ويطرح الأوسطى « مقار كوزمتش » على صدر زبونه ومنكبيه فوطة بيضاء منقطة ببقع صفراء ، ثم يطلق المقص فى شعر رأسه .

— « سأحلقها لك إلى الجلدة ! »

— « ذلك ما كنا نبغى ، أجل ، إلى الجلدة ، حتى أشبه التتر ، اجعلها ، بارك الله فيك ، كالبمبة فانك كلما زدتها حلقاً ، زاد الشعر كثافة ونمواً » .

— « كيف حال عمتى ؟ »

— « بحال وسط ، لا الحسنة ولا القبيحة ، لقد ذهبت منذ أيام لتولد امرأة اليوزباشى ، وقد أعطوها ريالا » .

— « ريال برمته ؟ مبلغ جسيم جداً ، . . . . اعدل رقبتك ، لقد كاد المقص يلتهم أذنك ! »

— « اتئد وترفق ، العياذ بالله ، إنك لتقتلع الشعر من جذوره »

— « هـذا شيء بسيط عادى ، وهو من أصول صنعتنا ، وكيف حال « أنيوتا » ؟»

— « ابنتى ؟ على خير حال ، إنها فى لعب ومرح دائم ، وقد عقدنا عقد زواجها يوم الأربعاء الماضى ، على الفتى «شيكين » لماذا لم تشهد الحفلة ؟ »

هنا انقطع صوت المقص ، وألقى الحلاق ذراعيه على جانبيه وصاح مذعوراً

— « عقدتم عقد من ؟ »

— « عقد ابنتى أنيوتا »

— « وكيف كان ذلك ؟ وعلى من ؟ »

— « على « شيكين » ان خالته تشتغل طباخة فى أسرة غنية ولاتزال تجلب إليه أطايب الطعام والشراب فى جعبتها ، ولاتضن عليه بالدريهمات من آن لآخر ، لقد سرنا جميعاً والحمد لله هذا الزواج ، والزفاف بعد أسبوع فلا تفوتك الفرصة ، ما شئت من مآكل ومشارب ، ستفوز إن جئت ، وعند الصباح يحمد القوم السرى »

قال الأسطى مقار « ماذا تقول ؟ وكيف كان ذلك ؟ » ثم عرته صفرة كصفرة الموت ، وطفق ينتفض ويرتجف من فرعه إلى قدمه واسترسل قائلا:

« مامعنى ذلك ؟ ..... هذا .... هذا .... هذا مستحيل .... عجباً عجباً ! أنيوتا .... أنيوتا .... تزوج من رجل خلافى ! ؟.... يا للبلية ويالمصيبة .... ماذا تقول ياشيخ السوء ، يابريد الشؤم ويانذير

النحس ، ويا غراب البين . . . . إنى أحبها حباً لو قسم على أهل الأرض لماتوا جميعاً ، لقد كنت أريدها لنفسى . . . . كيف وقع هذا الخطب ونزل ذلك البلاء ؟ »

— « الأمر فى غاية البساطة لقد زوجناها ، لا أقل ولا أكثر ، إنه رجل طيب ، وخالته طباخة عند أسرة موسرة ، فلا تغيب منها الخيرات والطيبات ، وماذا نبغى فوق ذلك ؟ »

وهنا بدت قطرات العرق البارد على وجه الحلاق ووضع المقص على المنضدة ، وشرع يحك أنفه بجمع يده وقال :

— « ويل لى وألف ويل وحسرة ! لقد كنت أريدها لنفسى ، لا أبعد الله غيرك أيها الشقى ! إنى أهيم بها حباً ، وقد وهبتها روحى ، . . . وقد وعدتنى عمتى خيراً . . . . ماذا أصابك فى عقلك ياشيخ السوء ؟ لقد طالما أحببتك وأجللتك كما لو كنت لى أباً ، . . . . لقد طالما حلقت رأسك مجاناً . . . . لقد طالما أكرمتك وأحسنت إليك ، . . . . ولما مات أبى ، أخذت الكنبة والبساط ، وطشت الغسيل والمشنة ، — وإلى الساعة لم تردها أتذكر ذلك ؟ »

— « أجل أذكره . ولكن خبرنى ، بأى وجه وبأية حجة كنت أزوجك ابنتى ، ولست لها بكفء ، وشهد الله وملائكته أنك من كل ميزة خلاء ، ومن كل فضيلة مجرد ، لا مال ولا جاه ولا منصب ، ولا صناعة إلا حرفتك الفقيرة البائسة »

— « وهل « شيكين » الذى تزوجها ذو فضائل ومزايا ؟ »

— « إن « شيكين » يملك الفا وخمسمائة يرابى بها و بعد فماذا يجدى الآن وقد قضى الأمر وهذا قضاء الله الذى لا راد له ولا دافع ، ولك فى غيرها من الفتيات مندوحة ، أليس فى الدنيا سواها ؟ ما بالك أضربت عن عملك؟ خذ المقص وأكمل مهمتك لا أبا لك ! »

ولبث الحلاق واجما لا حراك به ثم أخرج من جيبه منديلاً وشرع يبكى، فقال الشيخ يعزيه عن مصابه .

— « بؤساً لك ، ما بالك تبكى كالمرأة ! أين فتوتك ونخوتك ؟ أحلق لى رأسى ، ثم إبك بعدها كما تشاء ، خذ المقص وامض قدما فى عملك ، لاقدس الله نفسك ! »

تناول « مقار » المقص وحملق فى شقيه برهة ، ثم القاه ثانية على المنضدة وأن يديه لترتجفان ارتجافاً .

— « لا أستطيع ، لا أستطيع أن أحلق الآن لقد خارت قواى ، وشلت يداى ، وامصابى وواحسرتى ! ليس فى الأرض أنكد منى حظاً لشد ما أحب أحدنا الآخر ، وكم تعاهدنا على الوفاء وتعاقدنا ، وآلت وآليت بكل محرجة من الأيمان أن نرعى الذمام والعهد ، وأن لانخلف الميعاد ولا ننقض الميثاق ، وها نحن قد فرق بيننا أناس لاعطف عندهم ولا رحمة ! إليك عنى أيها الرجل الفظ الغليظ الكبد ، دعنى وما أكابد من لوعة البث وحرقة الجوى ! لا أطيق رؤيتك ! »

— « سأذهب الآن ولكنى موافيك غداً لتستوفى رأسى »

— « لا بأس »

— « هون عليـــك ونهنه غلواء حرقتك ، وبرحاء وجدك سأبكر غداً »

مضى الشيخ محلوق نصف الرأس كالسجين ، ومن شر البلية أن يظهر المرء بين الناس برأس كهذا ، ولكنه لاحيلة له فى تلك النكبة ، فلف رأسه فى الشال ، وذهب إلى مثواه ، ولما خلا الحلاق إلى نفسه قعد فى زاوية من دكانه وأطلق أسراب دمعه .

وبكر عليه الشيخ من غده ، فسأله الحلاق فى قسوة وجفاء .

— « ماذا تريد ؟ »

— « أحلق لى بقية رأسى يا « مقاروشكا »

— « تكرم على بدفع الأجرة مقدماً ، أنا لا أشتغل مجاناً »

فانطلق الشيخ دون أن ينبس بكلمة ، وقد بقى إلى هذه اللحظة وشعر رأســة طويل على أحد شطريه ، قصير على الآخر ، ولا غرابة ، إنه يرى من الإسراف والتبذير أن يدفع على حلق شعره أجرة ، وهو ينتظر نمو الجانب القصير حتى يلحق بالطويل ، وما ذلك على الله بعسير ، ومن صبر نال .

وفى ليلة العرس رقص وسط الضيوف بذلك الرأس المدهش .

الزوج

للقصصى الروسى الكبير انطون تشيكوف

نزلت فرقة من فرسان الجيش الروسى ذات ليلة أثناء مناوراتها بأحد بلدان الريف وكان مثل هذا الحادث مما يحدث ضجة وهرجاً بين الأهالى ، فكان أصحاب الدكاكين يعدونه أعظم فرصة للخلاص مما قد ظل على رفوفهم عشرة أعوام من كاسد البضاعة من الجبن والسردين والسلمون والبصطرمة والزيتون ، وكان أرباب الفنادق والمطاعم يسهرون فاتحى أبوابهم على مصارعها حتى الصباح .

وارتدى القومندان العسكرى لتلك البلدة وسكرتيره والحرس المحلى أفخر حللهم ، وأقبل رجال البوليس يجرون بأسرع ما لديهم هنا وهناك كالمجانين أما اضطراب السيدات واهتياج أعصابهن لوقع ذلك الحادث ، فحدث عنه ولا حرج .

ما كادت السيدات يشعرن بقدوم الفرسان حتى تركن الطبيخ على الكوانين والغسيل فى الطشوت ، وطرن إلى النوافذ فى مباذلهن وقد نسين أن يصلحن من هيئتهن ويجملن من أزيائهن فوقفن ينظرن إلى الجنود أثناء مرورها يصغين بآذان شرهة إلى عزفات الموسيقى ، فلو رأيت ما ارتسم إذ ذاك على

وجوههن من آيات الطرب والدهشة لحسبت أن تلك النغمات كانت تهبط عليهن من جوقة موسيقية بجنة الفردوس وليس من جوقة موسيقية عسكرية

ولم تر منهن إلا صائحة « فرقة الفرسان ! فرقة الفرسان ! ها هى قادمة ! »

فى مساء ذلك اليوم الساعة التاسعة ، كانت جوقة الفرقة تصدح بالألحان فى الشارع أمام النادى ، وفى داخل النادى كان الضباط يرقصون مع سيدات البلدة . وكانت السيدات يشعرن كأنهن يطرن بأجنحة القطا ، وقد سكرن من نغمات الموسيقى ومن حركات الرقص ، ومن صليل المهاميز فامتزجن بالضباط أيما امتزاج ، ونسين أصحابهن الأول من أهل بلدتهن ، ووقف أزواجهن وآباؤهن فى أخريات المكان قرب الباب ، ينظرون إليهن ، وكان من أولئك الرجال الموظف الصغير والصراف والكاتب والباشكاتب رجال عاديون ، بلداء ، صفر ، مهازيل ، أشكال كريهة ووجوه سمجة ، وسحنات باردة ، والكل بخستهم وسقوط أقدارهم ومن ثم لم يجرؤوا على دخول المقصف ، بل ظلوا واقفين ببابه ، قانعين بمجرد النظر إلى زوجاتهم و بناتهم وهن يرقصن مع طائفه الضباط ذوى الكفايات النادرة والمقامات السامية وكان بين أولئك الأزواج « شاكيلوف » محصل الضرائب ، وكان حسوداً حقوداً سيء النية ، خبيث الطوية ، ضيق الصدر والعطن ، والذهن والفؤاد ، مستهتراً بالشراب ، ذا هامة ضخمة كبيرة محلوقة وشفتين غليظتين بارزتين ، وكان خريج إحدى الجامعات ، وقد كان فيما مضى يقرأ أمهات الكتب ، وروائع الأدب ، وينشد شعر الفحول من الأقدمين والمحدثين ،

أما الآن فقد أصبح — كما كان يقول محصل ضرائب ليس إلا .

وقف صاحبنا ، محصل الضرائب ، مستنداً إلى الباب ، يدمن النظر إلى زوجته ، « حنة بافلوفنا » امرأة صغيرة الجرم شقراء تناهز الثلاثين ذات أنف دقيق مستطيل وذقن مخروطة مستدقة ، وكانت فى أفخر ثيابها مدهونة الوجه بالبياض والحمرة ، وكانت تديم الرقص بلا أدنى فتور ولا استراحة ، لا تتمهل ريثما تلتقط نفسها مستديمة الدوران والجولان ، دائبة الكر والفر

لا دؤوب إلا دؤوب رحاها أو دؤوب الرحى التى للمنون

لقد كانت تواصل الرقص حتى تكاد تخر مغشياً عليها ، وكان وجهها أثناء الرقص ينم على أنها كانت تفكر فى ماضى زمانها ، ذلك الماضى الغابر المنقرض حينما كانت ترقص فى قاعة المدرسة مع لداتها وأترابها ، وكانت تحلم أيضاً بمستقبل باهر زاهر ، كله أنس و بهجة وفرح ومرح ، لا تشك مطلقاً فى أن زوجها سيكون يوما ما أميراً أو على الأقل مركيزاً .

وماذا فعل صاحبنا محصل الضرائب ؟ لقد وقف يقذفها بنظرات ملؤها الحقد والبغضاء .

لم يكن فى إحساسه ذاك شىء من الغيرة ، بل كان كله غيظاً وضجراً ، لقد غاظه أولا أن المكان انشغل كله بالراقصين والراقصات فلم يجد لنفسه موضعاً يجلس فيه فيلعب بالورق لعبته المألوفة وغاظه ثانياً ضوضاء آلات الطرب التى كانت تصدع رأسه ، وغاظه ثالثاً ما كان يتوهمه فى الضباط من احتقارهم الملكيين من أهالى البلدة واستخفافهم بهم ، ولكن الذى

غاظه فوق كل شيء وأضرم النار فى أحشائه هو ما كان باديا على وجه زوجته إذ ذاك من آيات السرور والسعادة .

فهمهم قائلا :

« تباً لها لا أستطيع والله أن أنظر فى وجهها لقد أشرفت على الأربعين وما كانت قط جميلة فى أى دور من أدوار حياتها ولا تستطيع أن تعد لنفسها بين النساء أدنى مفخرة ، ثم تراها بعد كل ذلك لا تستريح حتى تلطخ وجهها بالألوان والصبغ وتخنق نفسها بالملابس الضيقة لأنها آخر مودة ! وتلوى شعرها وتجعده ! وتتبرج وتتحسن وتتصابى ، وتتثنى وتتقتل فى مشيتها ، وتميس دلالا وتترنح زهواً وتيها ! اصنعى ما بدالك يا لكاع ! تالله لأغضن من بصرك ولا نكسن من جيدك ولا طأطأن من إشرافك ! »

وقال محصل الضرائب يناجى نفسه :

« جزاك الله خيراً يا « حنة بافلوفنا » جزاك الله خيراً على مكارم أخلاقك ما بالك لا تجودين علينا ولو بنظرة ! ولكن أرانا لا نستحق منك نظرة ، وأين منك ومن تعطفاتك السنية نحن الفئة السافلة الدنيئة ، نحن الرعاع والسوقة ، نحن الحثالة والزبالة ! يا حسرتا علينا ويا ويلتا ! ومتى كان من حق أمثالنا الأوباش الأسافل أن ينتظروا الرعاية والعطف من أميرة المقصف وأمبراطورة المرقص وحسبك من الدنيا مغازلة الضباط ، وعلينا نحن وعلى الدنيا السلام ! »

وكان وجه الرجل أثناء ذلك يتلوى ويتشنج من شدة الحنق ، وكان

ضابط من الفرسان أسود الشعر ، بارز المقلتين ، تترى الوجنتين ، يرقص مع زوجته « حنة بافلوفنا » وكان ذلك يستشعر فى حركات رقصه سيما وقار وأبهة ويقوس رجليه حتى يصير أشبه شىء بالأراجوز الخشب الذى يرقصه الأطفال بخيوط تجذب وترخى ، بينما « حنة بافلوفنا » كانت شاحبة الوجه من فرط التأثر والانفعال تعروها هزة « كما انتفض العصفور بلله القطر » مائلة العنق ثانية العطف فى فتور واسترخاء تستقبل بناظريها سقف المكان وتوهم الناظرين بفرط رشاقتها وخفتها أنها لا تطأ أرض الحجرة وأنها أديم الهواء ، والواقع أنه كان يخيل إليها أنها تسبح فى الهواء سبحاً ، وأنها ليست فى النادى الأهلى ، وإنما فى أعلى عليين ، فوق السهى والثريا وكانت أشعة الطرب والحبور تنبعث من محياها ومن كل جارحة ، بل من كل ذرة من جسدها ، وهنا طفح فؤاد الزوج بالحنق وتدفق ، ولم يبق فى قوس صبره منزع ، فأحس ولعاً شديداً بأن يذهب إلى زوجته فيبكتها على سرورها ويتهكم من فرحها ومرحها ، ثم يوقظها من أحلامها ويردها من السكرة إلى الفكرة ، ويثبت لها بالبرهان المحسوس أن الحياة ليست من اللذة والبهجة كما قد خيلت لها أوهامها الكاذبة ، وأحلامها الخائبة .

فهمهم قائلا :

« مهلا مهلا ! يا حمقاء ؟ لأعلمنك كيف تبتسمين هذه الابتسامة الفاتنة أتحسبين أنك لا تزالين تلميذة غريرة وصبية غير مسئولة ؟ إن العجوز القبيحة من واجباتها أن تعرف أنها عجوز قبيحة ؟ »

وانتظر « شاليكوف » حتى انتهت نوبة الرقص ثم دخل المرقص وعمد إلى زوجته ، وكانت جالسة مع زميلها تعبث بمروحتها ، وترخى أجفانها دلالا ، وتصف كيف كانت ترقص فى العاصمة « بطرسبرج » .

(عند النطق باللفظة الأخيرة ضمت شفتيها على هيئة الورد فى الأكمام فقالت « فى دارنا فى بروسبور ») .

وقف محصل الضرائب أمامها كعزرائيل الموت ونعق كغراب البين ، قائلا بصوته الفاجع المفرق للجماعات .

« اسمعى يا « أنيوتا » هلمى بنا إلى البيت ! »

فانتفضت حنة بافلوفنا روعة وذعراً حينما رأت زوجها ماثلا أمامها كأنما قد تذكرت أن لها زوجا . وكانت قد نسيت تلك الحقيقة ، فتورد وجهها ، وخجلت أشد الخجل أن يكون زوجها ذاك الضئيل ، الشاحب الهزيل ، الشرس الشكس الحسود الحقود .

وأعاد محصل الضرائب أمره وقال :

« هلمى بنا إلى البيت ! »

قالت الزوجة :

« ولم ذاك ؟ ولم يحن وقت الانصراف » قال محصل الضرائب بمنتهى الاصرار والجزم والتصميم وعلى وجهه أمارات الحقد والبغضاء .

« أرجوك أن تذهبى معى فى الحال إلى البيت » .

قالت حنة بافلوفنا فى حيرة وارتباك :

« ماذا ؟ ماذا جرى ؟ هل حدث حادث ؟ »

« لم يحدث شيء ، ولكنى أريدك أن تذهبى إلى البيت فى الحال ، وحسبك ذلك وكفاك ، أرجوك أن تنهضى حالا فتمضى إلى البيت بلا أدنى تردد ولا تلكؤ ، من فضلك ! من فضلك ! »

لم تكن حنة بافلوفنا بالخائفة من زوجها ، ولكنها خجلت أشد الخجل من زميلها الضابط الذى كان ينظر إلى زوجها عن أقصى غاية الدهشة والعجب ، فقامت إلى زوجها فانتحت به جانباً ثم قالت :

« ما هذه الفكرة التى قامت برأسك ؟ وما معنى هذا الانصراف المبكر ؟ والساعة لم تعد العاشرة ؟ »

« لقد شئت ذلك ، ولا مرد لمشيئتى ، هلمى بنا ، لقد قضى الأمر »

« ما هذه السخافة ؟ اذهب وحدك إذا شئت »

« لا بأس ، لا بأس ، إذن والله لأمثلن دوراً مشهوداً ، ولأجعلنك عبرة لمن اعتبر ! »

وهنا سر الزوج إذ أبصر آية الهناء والسعادة تنمحى من صفحة وجه زوجته شيئاً فشيئاً و يحل محلها الهم والعناء ، والبؤس والشقاء ، فاستراح نوعاً ما.

وقالت زوجته :

« لماذا تحتاجنى اللحظة ؟ »

« لا أحتاج إليك مطلقاً ، ولكنى أريد أن تكونى فى البيت ، أريد ذلك لا أكثر ولا أقل »

« تلقت الزوجة هذا الأمر من زوجها بالرفض والإباء بادىء بدء ، فلما رأت فرط إبائه و إصراره ، شرعت تتضرع إليه وتبتهل أن يمهلها ولو نصف ساعة ، ثم شرعت تعتذر إليه وتحتج بصوت خافت خفى مبتسمة أثناء ذلك حتى لا يدرك الحاضرون أن بينها و بين زوجها مشادة ومشاحنة ، وجعلت تقسم له بكل محرجة مغلظة أنها لن تلبث أكثر من عشر بل من خمس دقائق ، ولكن محصل الضرائب أصر على إبائه .

قال :

« إلبثى إن شئت ، ولكنى سأجعلها مأساة لم ير الحاضرون مثلها »

وهنا نظر السيدات إلى حنة بافلوفنا وقلن لها :

« ما نخالك منصرفة ، ما نحسبك تاركتنا الآن بلا موجب ولا علة ! »

فنعق محصل الضرائب إلى السيدات قائلا :

« لا مؤاخذة ، لقد أصابها صداع مبرح ! »

وكأن حنة بافلوفنا ، وهى تبتهل إلى زوجها وتتضرع قد أسنت فى بضع دقائق لفرط ما أصابها من لوعة الحزن والكمد ، وقد هزلت وهرم وجهها وسمجت صورتها ، وذهبت تضرعاتها أدراج الرياح .

فخرجت باكية العين موجعة القلب إلى الردهة فتناولت ما كانت نضته من أثوابها فاقبلت ترتديه ، مصعدة الزفرات منحدرة العبرات .

ولما رآها السيدات تتأهب للانصراف فعلا أظهرن لذلك مزيد الأسف وكررن قولهن ، « فيم انصرافك الآن يا حنة بافلوفنا » وكرر

الزوج المستبد قوله إنها قد أصيبت فجأة بصداع مبرح ، كذباً وبهتاناً .

وخرجت وخرج على عقبها يسوقها أمامه كما يسوق النخاس العبد الآبق أو كما يسوق عريف الكتاب الصبى العاصى ، فى أتم صمت وسكينة كأنهما يشيعان جنازة — وإنها لجنازة — وجعل محصل الضرائب ينظر من قفا زوجته المسكينة إلى قفا منهزم خائب الأمال مخفق الأمانى ، ويتأمل شخصها الضعيف المنكسر الذليل بعين التشفى والشماتة ، ويتذكر ما كان منذ بضع دقائق من رقصها ومرحها وركضها فى ميادين اللهو والنعيم والطرب وما حل بها الآن من الكرب والبلاء ومن لوعة الكمد وحرقته ، فامتلأ فرحاً وسروراً وترنح ظرباً وحبوراً ، ومضى يسوقها أمامه ، كأنها أسيرة حرب وأخيذة رماح ومناصل ، ولكن ساءه أنه لا يزال ينقصه شىء كان بوده أن يجعله خاتمة مهمته والتاج المكمل لانتصاره ، وذلك أنه كان يود لو يعود إلى حفلة الرقص ، فيسلط لسانه بالقذف والسباب على كل من هناك ويجعلها عليهم ليلة من أسود الليالى ، ليذهب عنهم سكرة ذلك الجنون ويكشف عن أبصارهم عماية ذلك الفرح الكاذب ويريهم انه ليس فى الحياة إلا البؤس والشقاء والهموم والأحزان والسأم والملالة ، — أجل ويريهم أنه ليس فى الحياة إلا السحاب والضباب والأنواء والأمطار ، والثلوج والزوابع والوحل والزحاليق والوظائف المنكودة والأشغال الشاقة ، ما أتعس الحياة وأشقاها !

وزوجته المسكينة ، ما حالها ؟ يعجز اللسان أن يصف ما كانت تئن تحته وتتوجع من حازب الكرب ولاعج الهوى !

الوالد

للقصصى الروسى أنطون تشيكوف

« لا أنكر أنى ثمل ، لقد شربت قليلا . . معذرة ياولدى ، لقد دخلت حانة على الطريق ولشدة حرارة الجو تناولت قليلا من البيرة — ثلاث زجاجات فقط » .

وهنا استخرج الشيخ الهرم « موساتوف » خرقة بالية من جيبه فمسح بها وجهه الحليق المتهدم من السن ومن الكأس .

واسترسل فى حديثه . قال :

« لقد جئت لأراك فاطمئن عليك ، لن أبقى عندك أكثر من دقيقة ، يا عزيزى « بورنكا » وبهذه المناسبة أسألك . . . لا تؤاخذنى ياولدى وفلذة كبدى . . . أقول وبهذه المناسبة . . هل عندك عشرة روبلات تقرضنيها إلى يوم الثلاثاء القادم ؟ . . . لقد استحقت على أجرة المنزل ولا درهم معى ولا دانق . . لا شىء البتة » .

ترك الفتى والده النشوان فى الحجرة وخرج إلى فنائها فوقف يتحدث همساً إلى صاحبة البيت (فيلا صيفية كان هذا الفتى الطالب نازلا بإحدى حجراتها) وإلى زملائه — فئة من الطلبة كانوا يشغلون سائر حجرات البيت .

و بعد ثلاث دقائق رجع إلى أبيه فأعطاه عشرة رو بلات فى صمت وسكينة ، فتناولها الأب وألقاها فى جيبه بلا أدنى اكتراث ثم قال :

« وكيف حالك ؟ لم أرك منذ زمن مديد »

« أجل منذ عيد الميلاد »

« لقد عزمت على زيارتك اثنتى عشرة مرة ولكن عدتنى عن ذلك العوادى ، وعاقتنى العوائق . . ولكن ماذا أقول ؟ أرانى أهذى هذياناً . . كلامى كله هذيان . . . لا تصدق ما أقول ولا تصدق أيضاً ماوعدتك به من سداد مبلغ عشرة رو بلات فى يوم الثلاثاء القادم ، لا تصدق أية كلمة أفوه بها ، لم يكن لدى أدنى عوائق تحول بينى و بين زيارتك ، وما منعنى سوى الكسل والسكر ، وشد ما يسوؤنى و يخجلنى أن أطوف الشوارع وأجوب الطرقات فى مثل هذه الملابس ، سامحنى وتجاوز عن سيئاتى يا « بورنكا » لقد أرسلت إليك أستجديك المال برسائل كلها أنين و بكاء وشكوى تستذيب الحجر الأصم . . فشكراً جزيلا على عطاياك ولكن لا تصدق ما بتلك الرسائل من الشكوى والعويل ، فما بها سوى أكاذيب وتلافيق . . وا سوأتى منك يا ولدى و يا خجلتى ! إنى أسلبك سلباً وأنهبك نهباً وهذا على يقين منى أنك فى عسر وفى ضيق ، وأن أقصى ما تستطيعه لنفسك من فاخر المطاعم هو الطحال والكرشة ، ولكن ماذا أصنع فى وقاحتى وصفاقة وجهى ، إنى والله لمجمع الرذائل والخبائث ، وحق أن أنصب لفرجة الناس فى معرض ، ولكن اعذرنى وسامحنى يا بورنكا ، إنى

أعترف إليك بالحق ، لأنى أحبك حباً لا أجترىء معه على خديعتك ، و إنى أجلك أن أكذب عليك ، و إن وجهك الطلق الصريح ليهيج من شعورى الميت و يثير عواطفى ! »

دقيقة سكوت ، وتنهد الشيخ من أعماق قلبه ، وقال :

« يجب عليك فيما أظن أن تعزم علىّ بزجاجة من البيرة ، ألست توافقنى على ذلك ؟ »

فانطلق الفتى دون أن ينبس ببنت شفة وجرت همسات بينه و بين أصحابه على باب الغرفة ، ولما عاد بالبيرة بعد هنيهة أشرق وجه الشيخ فرحاً لمجرد منظر الزجاجة والأقداح وترنح طرباً ، وغير من لهجة حديثه وموضوعه .

قال :

« لقد حضرت سباق الخيل أول أمس وكنا ثلاثة أصدقاء ، وقد أخطر كل منا ثلاثة روبلات على الحصان « فرسكا » فأصاب كل واحد ثلاثة وثلاثين بهمة « فرسكا » وأنفاسه .. إن السباق أمتع لذات الحياة عندى ، لا أستطيع الصبر عنه أسبوعاً واحداً ، والملعونة امرأة أبيك أخمد الله أنفاسها لا تزال تعنفنى عليه بما يكدر صفائى و يسود عيشتى ، ولكنى على الرغم من ذلك لا أدعه ولا أستطيع »

كل هذا والفتى بورنكا مطرق حزين ، يطوف فى الغرفة جيئة وذهاباً ، ولما قطع الشيخ حديثه ليسلك صوته ، أقبل عليه الفتى فقال :

« لقد اشتريت لنفسى بالأمس حذاء ، وقد ألفيته ضيقاً على قدمى ، سأعطيكه الآن » .

« ولكن بثمنه ؛ لا أحب أن أظلمك شيئاً وإنما غاية ما فى الأمر أن تمهلنى فى الدفع حتى يجيء فرج الله » .

ومد الفتى يده تحت السرير فاستخرج حذاء جديداً ، ونزع الشيخ نعليه الباليتين (أصلهما نصف عمر) وشرع يجرب على قدميه الحذاء الجديد ، ثم قال :

« محكم جداً ، لأحتفظن به ، ومتى قبضت معاشى يوم الثلاثاء بعثت إليك بثمنه » وسرعان ماغير من لهجة حديثه فعاد إلى تلك النغمة الحزينة الباكية فقال « لاتصدق كلامى هذا ، فما أحسبنى باعثاً إليك بثمن الحذاء هذه لعمرك أكذوبة ، كأكذوبة المعاش ، وأنى لى بالمعاش وأنا من علمت ، معسر معدم ، وأراك بعد قد موهت على نبأ هذا الحذاء ، وملت فيه عن جادة الصدق ، فما به عليك من ضيق ، وإنما حملك على اتهامه بالضيق سعة فضلك وانفساح كنفك للبر والمروءة ، إنى أفطن إلى مقاصدك يا بورنكا ، وما مراميك على بخافية » .

فقاطعه ابنه ليغير لهجة الحديث فقال له :

« هل انتقلت إلى مسكن جديد ؟ »

« أجل يا بنى ، إنى أغير منزلى كل شهر ، فان امرأة أبيك لا يمكنها أن تقيم بمكان واحد أكثر من ذلك ، فهى من سوء الخلق والشراسة

وسلاطة اللسان ، بحيث لا يطيقها إنس ولا جان » .

« لقد ذهبت إلى منزلك القديم فلم أجدك وكان ذهابى لأدعوك إلى الإقامة معى فى مسكنى هذا ، فإنه أصح هواء وأطيب جوا وأدر عليك بالصحة والعافية » .

« إن امرأة أبيك لا تتركنى وشأنى فأنا عندها كالأسير العانى ، هذا وليس يهمنى أن أترك جحرى القذر المظلم لأقيم فى دارك هذه ، لقد ألفت جحرى الخبيث كما ألفت أنت متنزهك الأنيق ، وكل لما خلق له ميسر ، وها أنا ذا مع استمتاعى بطلعتك البهية الآن أحن إلى جحرى المظلم الخبيث حنيناً ، يجذبنى إليه جاذب خفى لا أعلم كنهه ، ولكنه جاذب ماله من دافع ، قضاء مبرم قضى به الأزل لا حيلة فيه ولا راد له ، وكذلك خنفساء المزبلة يعييك اجتذابها إلى مغرس الورد ، وبعد فلقد آن لى أن انصرف يابنى »

« انتظر دقيقة ، سأصحبك إلى المدينة » .

ثم ارتديا معطفيهما وانطلقاً ، ولما كانا ، بعد برهة ، يمتطيان مركبة ، كان الظلام قد أقبل ، وبدأت الأنوار تلوح بالنوافذ .

وقال الشيخ مجمجما :

« ويلى ثم ويلى ! إنى لشر آفة ونكبة على أولادى ، وإنهم لنعم الأولاد ، كلهم بر وخير وكرم ونجابة ، وإنهم لنعم الكنز والذخر والعتاد والعماد ، ولو أنصف القدر ما جعلنى لهم أباً ، فبئس الأب أنا ، شر والد لخير ذرية » .

« صه يا أبت ، وخذ فى حديث آخر »

« لك الحمد يا بارىء النسم ، لقد رزقتنى من الذرية أكرمها وأتقاها ، ثلاثة بنين أكفاء فى المكارم ، كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها ، لله درهم ، ما أثقب أفهامهم ، وأرجح أحلامهم ، فهاك أحدهم « جريجورى » . جريجورى أيها الحوذى ، أتسمع أيها الحوذى أم أنت أصم ، كمن قد من صخرة أو نحت من شجرة . . ابنى جريجورى أيها الحوذى ، إن دماغه وحده ليكفى أن يملأ عشر جماجم خاوية ، وهو ، أيها الحوذى ، يحسن أن يتكلم الفرنسية ، والألمانية وهو أفصح فيهما من كل هؤلاء الأساتذة والمحامين ، إنك لن تمل حديثه ، أولادى ! أولادى ! لا أكاد أصدق أنكم أولادى ! لا أكاد أصدق ذلك ، إنكم ضحاياى وفرائسى . . إنى نقمة عليكم وعذاب ! أنغص من عيشكم ما صفا ، وأمر من مذاقه ما حلا ، وأنت يا قرة عينى « بورنكا » لقد تماديت فى إعطائى ، إنك لتعطينى كل شىء حتى ما تستر به بدنك وما تمسك به حشاشتك .

ولو لم يكن فى كفه غير نفسه لجاد بها فليتق الله سائله

تحرم نفسك الدرهم والدينار تجود به على وأنت تعلم أنه للخمار ذاهب ، ولكنك تؤثر به الخمار على نفسك لأنك لا تستطيع أن تجرح بالرفض والحرمان شعورى . . . وأخوك « جريشا » ضحية أيضاً ، لقد دخلت عليه مكتبه يوم الخميس الماضى إنه فيه لرئيس مطاع مبجل ، فوقفت أمامه وسط

مرؤوسيه قذر الثياب رث الهيئة سكران مترنحاً ، تفوح منى رائحة الكؤول كأنى خمارة متحركة ثم كانت منى بحضرته عربدة مخجلة وهنات فاضحة مخزية ، أيسر عقوباتها الجلد بالسياط والرجم بالحجارة ولكنه أوسعنى حلماً وعفواً وإكراماً ، وتلطف بى وترفق ، ولم يخدش مسمعى بعوراء من الكلم ولا قارصة من اللفظ ، لقد جرعته أبرح شجاً وغصة ، وابتليته بوصمة العمر وسبة الأبد فما غضب ولا اغتاظ ، وما ضجر ولا تململ ، بل ما تحرك عن هيئته ، وكأنما أحد ومنه بحمل ثقال لا يكاد ينبعث ، ثم ما تنكر لى ولا تغير ، ولكنه خف إلى مبتسما متهللا ، وقدمنى إلى زملائه ومرؤوسيه وحملنى إلى منزله فأجزل قراى ، وأكرم مثواى ، وما سلبته بعد من المال أعظم بكثير مما سلبتك ... وأخوك « ساشا » ثالث أولادى ، أراه أيضاً ضحية لى وفريسة ، لقد تزوج ابنة سرى من الأعيان ، جنرال فى الجيش من طبقة الأرسطوقراط ، أفتحسب أنه قطعنى من أجل ذلك ، وبرىء منى؟ كلا ! فلقد سعى إلى بعروسه عقب القران فأدى إلى زيارة ... فى جحرى المظلم الخبيث القذر ، .... أجل هذا ما كان منه وأيم الحق ! .... أيها الحوذى قف ! »

ووثب الشيخ من المركبة فدخل خمارة ، وعاد بعد نصف ساعة يترنح سكراً ، ويسلك حلقه كما يفعل السكارى ، وجلس إلى جنب ابنه وقال « أين أختك « سونيا » الآن ؟ ألا تزال بالقسم الداخلى من المدرسة كعهدى بها منذ عامين ! »

« كلا ! لقد تركت المدرسة منذ عام ، وهى تعيش الآن مع حماة أخى « ساشا » . »

« إنها لنعم الفتاة ، على جانب عظيم من العفة والكرم والحياء ، ليت أمها عاشت لتراها على مثل هذه الحال ، ليتها عاشت لتفرح بزواجها ، وتشرف على حفلة زفافها ،... مسكينة ! ليس لها بعد الأم من يحزن لحزنها ويسر لسرورها ،.... خبرنى يابورنكا ، أتعلم الفتاة حالى من البؤس والشقاء أسمعتها قط تسأل عنى ؟ »

سكت الفتى عن الجواب ، ومرت خمس دقائق فى صمت عميق ، وتنفس الشيخ الصعداء ، ومسح وجهه بالخرقة البالية وقال :

« إنى أحبها يابورنكا ، أنها ابنتى الوحيدة ، والابنة ، رعاك الله ، خير غناء المرء وانفس ذخيرته فى الشيخوخة ، وهى فى الهرم أجمل عزائه وسلوته ، . . . هل من سبيل إلى لقائها يابورنكا ؟ »

« بلا أدنى شك ، متى شئت » .

« أحقاً تقول يا بورنكا ؟ وهل ترضى أن تلقانى وأنا على ما ترى من سوء الحال ، ورثاثة السربال ؟ »

« أنها ما برحت تتلمسك وتنشدك وتسائل عنك كل من لاقت ، وإن بها من فرط الحنين إليك والصبابة أضعاف ما بك » .

« جزاها الله خيراً ، أنعم بكم جميعاً واكرم أيها الأولاد لنعم الأولاد البررة الأخيار ! أن أولادى لنعم الأولاد ، يا أيها الحوذى ! وأنهم لصفوة البنين

وزينة شباب العالمين ، أصغ إلى يا بورنكا ! إنى أريد لقاء ابنتى ، فأعد لذلك العدة ، أنا لا أحب أن أبدو لها على هذه الهيئة الرثة القذرة ، وما من خطة سوى أنى أهجر الشراب أسبوعاً أو نحو ذلك لأعيد إلى وجهى شيئاً من نضرته الأولى ، ثم أجيئك فتعيرنى حلة من ثيابك أرتديها ، أحلق ثم لحيتى ، وأقص فودى ولمتى ، وتذهب أنت فتأتى بالفتاة إلى فى منزلك ، أتصنع لى ذلك ؟ »

« سمعاً وطاعة » .

« قف أيها الحوذى ! » ووثب الشيخ من المركبة فدخل خمارة ثم عاد بعد نصف ساعة ، وكرر هذه الفعلة ثلاث مرات أخرى أثناء مسير المركبة بهما إلى مسكن الشيخ .

ولما نزلا عن المركبة وانصرف بها الحوذى أخذا فى طريق قذرة ضيقة يؤمان منزل الشيخ وقال الوالد وقد كسا وجهه سيمياء من الذلة والخشوع والمسكنة استعداداً للقاء زوجته الخشنة القاسية .

« بورنكا ! مهما أغلظت لك القول هذه المرأة فلا تكثرت لقولها ولا تحفل ، ثم ألن لها من جانبك ، وسهل من عريكتك ، فلقد تكون جاهلة وقحة ولكنها طيبة فى الجملة ، وإن تحت ظاهرها الخشن لفؤاداً رقيقاً » .

وانتهت الطريق الضيقة المستطيلة ، وألفى الفتى نفسه فى مدخل مظلم وجر الباب وانفتح وفاحت رائحة المطبخ والطعام فى مرجله ، ورائحة الشاى فى إبريقه ، وسمعت أصوات خشنة مبحوحة ، ومر الفتى خلال المطبخ ،

لا يبصر سوى دخان متكاثف ، وحبل معلق عليه ثياب مغسولة .

وقال الرجل وانحنى ليدخل بابنه حجرة صغيرة منخفضة السقف ، ذات هواء خانق ، لشدة قربها من المطبخ .

« هاك جحرى ! »

وكان فى ذلك الجحر ثلاث نسوة على المائدة ، فلما بصرن بشخص غريب ، تلاحظن شزراً وكففن أيديهن عن الطعام .

وقالت امرأة الشيخ « هل أحضرت المبلغ ؟ »

« أجل ، أجل ، اجلس يا بورنكا ، إن عيشتنا ههنا بسيطة ساذجة »

وأقبل الشيخ يتمشى فى الحجرة بلا قصد ، وقد أخجله منظر الحجرة وحقارتها وأحس أن ذلك يصغره فى عين غلامه ، ولكنه أراد أن يظهر عزته و إباءه أمام المرأتين الزائرتين ، وأنه والد قد ظلمه بالعقوق والجفاء أولاده ، فقال :

« أجل أيها الشاب الصغير ، لقد نزه الله عيشتنا عما يشوب عيشكم من مظاهر الترف الكاذب والغرور الباطل ، نحن أناس سذج بسطاء نعيش عيشة الزهاد ، الأتقياء ، لا سرف ولا بذخ ولا تبذير ، إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ، ولسنا مثلكم جل همنا أن نروع الناس بكاذب المظاهر وبهرج أسباب الترف والرفاهية كلا ! ... أتشرب قدحاً من الفودكا ؟ »

فقالت امرأة الشيخ :

« إنه أسمى مقاماً من أن ينازعنا شرابنا الخشن الغليظ »

قال الوالد :

« سيتناول من شرابنا على أية حال .

وجامل الفتى أباه وامرأته ، فاحتسى قدحاً فى أتم صمت وسكينة ، ولما أتوا بالإبريق شرب أيضاً قدحين من أخبث أنواع الشاى استرضاء لأبيه ، وعلى وجهه أوضح شواهد الغم والكآبة ولبث يسمع من امرأة أبيه إشارات وتلميحات غامضة وظاهرة عن عقوق الأبناء وجفوتهم وما أعده الله من عذاب السعير لكل قاس على أهله ولكل خاذل أباه فى المحنة والبلاء .

وقال الوالد :

« إنك تنتقدنى وتنتقد أحوالى ، وتحسب أنى ألقيت بنفسى فى الهاوية ، وأنى أسففت إلى أسفل درك من البؤس والرذيلة ، وأنى أستحق منك الرحمة والرثاء ، ولكنى أرى أن عيشتى هذه أقرب إلى الصواب والرشد من عيشتك المترفة المنعمة . . . إنى فى غنى عنك وعن سائر الناس ، لا أطلب البر والمعونة من أى إنسان ، . . . ولا أتطلع إلى الشهد المصفى تمن به على يد المحسن المتفضل .

وأظمأ لو أهدى لى الماء منة ولو كان لى نهر المجرة موردا

و إنى لأقوى على احتمال نظرات الرحمة والرثاء تصوب إلى من ألحاظ ولد عاق »

و بعد الشاى تناول سمكة صغيرة ونثر عليها فصوص البصل ، و بقلبه من حرقة الكمد ما أجرى دموعه . . . واستأنف الكلام عن مكاسبه

الجمة . من سباق الخيل ، وعن القلنسوة التى اشتراها منذ أيام بعشرين
رو بلا ، وجعل يرسل الا كاذيب واجدا لها فى فمه من اللذة والحلاو
أضعاف ما كان يجد من السمكة المزخرفة بالبصل ومن الشراب الكريه
وأقام ابنه تحت هذا الوابل الثر من قوارص التهكم والتعريض ساعة من
الزمان ، ثم نهض لينصرف وقال الشيخ :

«ليس لى أن أكرهك على البقاء فى هذا المنزل الحقير ، ثم العفو والمعذر
إن قعد بى سوء الحال عن استقبالك بما أنت أهله من مظاهر الترف والنعيم

ثم نشر أجنحته زهواً وخيلاء ونخر نخرة عزة وكبر ياء ، وغمز بعينه إلى
النساء وقال :

« أستودعك الله ياولدى »

وشيعه إلى خارج الغرفة .

ولما صارا هنالك ، تحت مدارع الظلماء ، أسند الشيخ وجهه إلى صدر
الفتى وشهق شهقة مكتومة وفاضت عينه بالعبرات وقال همساً :

« بودى أن أرى ابنتى « سونيا » أنجز لى هذه الطلبة ياقرة عينى ، وإنى
كما أسلفت إليك ، سأحلق لحيتى ، وأقص فودى ولمتى ، أرتدى حلة
نظيفة من ثيابك ، . . وسأحبس لسانى خشية العثار فى حضرتها ، . . أجل
سأحبس من لسانى ، فما أكثر عثراته ! »

ثم اختلس نظرة وجلة إلى الباب الذى كانت تنبعث منه أصوات
النساء ، وكتم شهيقه ، وغيض من عبراته ، وقال بصوت عال :

« فى ذمة الله يا ولدى ! »

ليلة هائلة

للقصصى الروسى أنطون تشيكوف

تحفز للكلام « ايفان بتروفتش » وألقى على ضيوفه المقال الآتى بصوت مضطرب ووجه شاحب .

« كان الظلام حالكا أثناء عودتى ليلة عيد الميلاد ١٨٨٣ من منزل صديق لى حيث كنا فى جلسة روحانية .

« كنت فى ذلك الحين نازلا فى مدينة موسكو بمنزل قرب كنيسة « اسامسون » فى أشد أحياء المدينة وحشة وظلاماً ، وكانت تنتابنى أثناء مسيرى هواجس كاربة أليمة .

« وكان آخر ما سمعته من كلمات الأرواح التى استحضرت أثناء تلك الجلسة الروحانية كلمة وجهت إلى بالذات من روح الفيلسوف الأشهر « سبينوزا » وهى :

« لقد دنا أجلك . . . . . فأخلص إلى الله توبتك ! »

« ولما استعدت من روح سبينوزا تلك الكلمة زاد فيها لفظة فقال :

« لقد دنا أجلك ، فاخلص إلى الله توبتك الليلة » .

« لست ممن يعتقد بعلم الأرواح ، ولكن فكرة الموت وذكرياته لا تزال تثير أشجانى وتورثنى الهم والكآبة » .

« ولما فتحت باب غرفتى فى أعلى المنزل ودخلتها لم تذهب عنى وحشتى ورهبتى ولم تزايلنى همومى وأشجانى وكانت الغرفة مظلمة وقد جعلت الريح من وراء النوافذ تنوح وتندب وتلوذ بزجاجها حسرى موله كأنها تستجير من البرد ولواحفه وتلتمس الكن والدفء داخل الحجرة .

« وناجيت نفسى :

« إن صحت مزاعم « سبينوزا » فأنا ميت الليلة لا محالة بين مناحة هذه الرياح الصائحة ، ومآتم تلك السحب السافحة » .

« ثم إنى أشعلت كبريتاً ، وإذا منظر من أشنع المناظر ، وأزعجها للخواطر لقد وقف شعر رأسى وقضقضت أنيابى وارتعدت فرائصى وصرخت صرخة منكرة ثم هرعت نحو الباب وقد ملأنى الرعب والدهش واليأس فأغمضت عينى .

« لقد أبصرت وسط الغرفة نعش ميت . نعم أبصرت ما تحلى به ظاهر النعش من الوشى الأرجوانى والصليب الذهبى ، ومع أن رؤيتى لذلك النعش لم تك إلا لمحة خاطفة فإنى لا أزال أتذكره بحذافيره و بأدق تفاصيله ، لقد كان نعشاً أعد لصبية صغيرة كما دلنى على ذلك حجمه ولونه وزخارفه .

« وكذلك انطلقت من باب الغرفة كالسهم المرسل فانحدرت فى السلم كالسيل المنهمر بلا أدنى روية ولا تفكير ولا تدبر مدفوعاً بأقوى دافع من الرعب ، ولما صرت فى الشارع استندت إلى عمود مبلل بقطرات المطر من

أعمدة المصابيح و بدأت أهدىء روعى وأسكن جأشى ، وكان قلبى يخفق وأنفاسى مبهورة .

« لو أنى حين أتيت غرفتى ألفيتها تحترق ، أو لقيت فيها لصاً أو سبعاً ضارياً أو كلباً مسعوراً أو انقض سقفها أو تقوضت أركانها أو انخسفت أرضها ..... لما أدهشنى ذلك ولا أذهلنى ولا راعنى ، ولما رأيت فيه إلا أمراً طبيعياً وشيئاً عادياً ، وحادثاً مألوفاً غير مستبهم ولا مستعجم ، أما وجود ذلك النعش فى وسطها فهذا ما ليس يفهم ولا يتصور ! من أين أتى ؟ ومن جلبه ؟ نعش فتاة من طبقة الارسطوقراطية ، مزخرف موشى بالذهب غال ثمين — كيف جىء به إلى غرفة حقيرة لموظف حقير ، أكان خالياً أم فيه جثة ؟ ..... ومن تلك الفتاة التى اخترمت فى نضرة الشباب وزهرة الصبا ؟ .... والتى تؤدى إلى الآن هذه الزيارة المدهشة المزعجة ؟

فسنح لى هذا الخاطر فجأة ، إن لم تكن هذه معجزة ، فجريمة ! .

« وحار ذهنى وضل فى مجاهل الحدس والتخمين ، لقد كان باب الغرفة مغلقاً والمفتاح فى مخبأ لا يعرفه إلا خاصة أصدقائى ومن المحال أن يكون منهم جالب النعش وقد يظن أن حانوتياً أتى به إلى غرفتى خطأ ولكن الحانوتى لا ينصرف حتى يأخذ أجرته .

« ثم هجس فى خاطرى هاجس آخر ، وهو أن الأرواح قد تنبأت بوفاتى هذه الليلة ، أليس من المحتمل أن تكون هى التى بعثت إلى بهذا النعش هدية أو « نقوطاً » .

« وأسبل القطر يرمينى عن قوس الغمام بنباله ، وكأنما الريح تطالبنى بثأر من شدة جذبها بمعطفى وردائى وقد غمرنى الوابل الثر غمراً ، وكان لا بد لى أن ألجأ إلى ملجأ ، ولكن إلى أين ؟ فإما الرجوع إلى غرفتى حيث النعش قائم فذلك البلاء الأعظم ، وهو الاستهداف إلى ما يورث الجنون أو المنون ، وإما البقاء على قارعة الطريق تحت شآبيب القطر ، ولفحات القر فذلك محال .

« ذهبت إلى مسكن زميلى روستوف وكان يسكن غرفة مفروشة فى إحدى الأزقة المظلمة ، وقرعت بابها فلم أجده بها ، وتلمست المفتاح حتى وجدته ثم فتحت الغرفة ودخلت .

« نزعت ردائى المبلل بمياه الأمطار وألقيته على أرض المكان وعبثت فى الظلام حتى عثرت بمقعد فجلست ، وكان الظلام حالكا والريح تعول وتنقر على زجاج النوافذ كالمستجير ، والصرصور يرتل نشيده الحزين على الموقد ، ونواقيس البيع تدق احتفالا بعيد الميلاد ، فأسرعت إلى إشعال عود من الثقاب ، ولكن ذلك لم يخفف من كربتى بل زادها ، إذ جلا لناظرى ما ملأنى فزعاً وروعاً ، فصرخت صرخة شديدة ، وتقهقرت ثم انطلقت من باب الغرفة وقد كدت أجن .

« لقد أبصرت فى وسط الغرفة نعشاً »

« وكان ذلك النعش أكبر من الذى أبصرته بغرفتى ، وكان مغطى بنسيج أسود زاد منظره وحشة وكآبة ورهبة ، من أين أتى ؟ ما أظنه إلا

وهما من الأوهام وخدعة بصرية من صنع الخيال الثائر والأعصاب المضطربة إذ ليس من الممكن ولا من المعقول أن يكون فى كل غرفة نعش ، إن أعصابى معتلة لا محالة ! فأينما توجهت الآن أبصرت أمامى مستودعات الموتى .

. . . . . وعلى ذلك لابد أن أكون مجنوناً ، وما سبب جنونى بغامض ولا مجهول ، إنما هو تلك الجلسة الروحانية التى ذكرتها آنفاً وكلمات الفيلسوف سبينوزا .

« وكذلك قلت فى نفسى وأمسكت بفودى رأسى .

« لقد أصابتنى جنة ! رباه ! رباه ! ماذا أصنع ؟ »

« أوشك رأسى أن يتصدع وخانتنى رجلاى ، وسحت السماء كأفواه القرب ، ووخزنى المطر وخزاً ، ولم يكن علىّ ردائى ولا قلنسوتى ، ولم يكن فى طاقتى أن أعود إلى الغرفة فألتقطهما من هنالك »

« لقد ضمنى الرعب فى أحضانه القاسية ، وقف شعر رأسى وتحلب العرق البارد من جبينى وتحدر على وجهى ، أصابنى كل ذلك رغماً من اعتقادى أن ما رأيته من تلك المشاهد المزعجة إنما هو من مرض أعصابى ، فهو خيال لا حقيقة » .

« ماذا أصنع ، لقد خرجت من عقلى واستهدفت لأخطار البرد والرطوبة »

« فى تلك الآونة تذكرت صديقى « جود ساروف » الذى تخرج حديثاً من مدرسة الطب ، وكان ساكناً بمقربة منى ، وكان معنا فى تلك الجلسة الروحانية . . . فأسرعت إليه وكان يسكن غرفة بقمة منزل فى تلك الناحية .

« وبينما أصعد السلم إلى غرفة ذاك الصديق سمعت ضوضاء مزعجة ، صوت حركات إنسان فى حيرة واضطراب يعدو هنا وهنالك ويضرب الأرض بقدمه ضربات عنيفة .

« وسمعت صيحة نفذت إلى أعماق نفسى .

« الغياث والمدد ! المعونة والنجدة !

« ثم أبصرت شبحاً ينحدر مسرعاً فى السلم .

« جود ساروف ! صديقى جود ساروف ! أذلك أنت ؟ ما خطبك وماذا دهاك ؟ »

« ولما انتهى إلى جود ساروف وقف وقبض على كتفى بيدين متشنجتين ، وكان مصفر الوجه مبهوراً ينتفض انتفاضاً ، تدور عيناه فى الفضاء حيرة وقلقاً . . . . .

« وقال لى بصوت أجوف مبحوح

« أذاك أنت يا « ريكيموف » . . . . أذاك أنت حقاً . . . . إن بوجهك من الصفرة والشحوب ما يخيل إلى أنك ميت قد خرج الآن من قبره يحمل أكفانه . . . ولكن كلا . . . ما أظنك إنساناً ذا جسد . . . إنما أنت وهم وخيال ، رباه ! رباه ! ما أشنع مرآك وما أخوف منظرك ! . . .

« قلت له » :

ما الذى أصابك إنك كخيال من خيالات الموتى :

فأجابنى قائلا :

« أمهلنى ريثما أستجم وأسترد أنفاسى . . . . . يسرنى والله أنى لقيتك الآن — إن كنت حقاً صديقى ولست بخيال ولا بخدعة بصرية . . . . . ألا لعنة الله على تلك الجلسة الروحانيـة وعلى كل مشتغل باستحضار الأرواح . . . . لقد خرجت الليلة من تلك الجلسة مشوش الأعصاب معتلها . . . . أيخطر ببالك أنى حينما دخلت غرفتى منذ هنيهة ألفيت فى وسطها . . . . نعشاً ؟

« لم أصدق أذنى وسألته إعادة ما قاله :

« فقال مكرراً سالف قوله وجلس على عتبة الدار متعباً منهوك القوى »

« نعشاً ، نعشاً حقيقياً ! لست بجبان .

« ولكنه منظر خليق أن يزعج إبليس نفسه .

« فحدثت صديقى الطبيب بلسان لجلاج وأسلوب مضطرب مشوش عن النعشين اللذين رأيتهما . . .

« ولبثنا برهة ينظر أحدنا فى وجه أخيه عن دهشة وذهول

« ولكى نتأكد من أننا فى يقظة لا فى منام وأن ما نراه ونحسه حقيقة لا أحلام — أخذنا نتلاكم ويقرص أحدنا الآخر .

وقال صديقى الطبيب :

« كلانا يحس ألم القرص واللكم ، فنحن يقظان فى هذه اللحظة ، ولسنا فى منام يحلم فيه أحدنا بالآخر ، وعلى ذلك فالنعوش التى رأيناها لم تكن خيالات ولا خدعاً بصرية ، وإنما أشياء كائنة موجودة حقيقية ، ماذا نصنع الآن يا صاحبى ؟

« وقفنا ساعة كاملة على السلم الرطب المتثلج نذهب فى الظنون كل مذهب حتى كاد يهلكنا البرد والرطوبة ، وأخيراً عزمنا على استجماع قوانا وإيقاظ خادم الدار ليصحبنا إلى غرفة صديقى ، وكذلك مضينا ، فدخلنا الغرفة وأشعلنا شمعة فرأينا فعلا فى وسطها نعشاً مغطى بحرير أبيض ناصع موشى بالفضة مطرزاً بحاشية من الذهب ذات أهداب كثيفة ، فصلب الخادم على صدره حين أبصر النعش .

« وقال صديقى وهو لا يزال يرتعد وينتفض فى كل عضو وجارحة

« الآن يمكننا أن نتبين إن كان النعش خالياً . . . أو معموراً !

وبعد طول تردد انحنى الطبيب (صديقى) فوق النعش وضم شفتيه من الروع والتشوف ، ثم انتزع غطاء النعش بشدة .

« ونظرنا فيه . . . . . »

« فاذا هو خال . . . . . »

« لم تكن به جثة ، ولكن أصبنا فيه هذه الرسالة وهى :

عزيزى جود ساروف . . .

« لا يخفى عليك ما قد أصابنا من الارتباك المالى الشديد ، فلقد ركبنا من الدين ما فدحنا وكاد يزهق أرواحنا : وقد أفلس حماى — صاحب الحانوت — فعلا وغداً تباع السلع بالمزاد العلنى ، وما بعد ذلك إلا البؤس والفاقة ، وقد عقدنا بالأمس مجلساً من أفراد الأسرة وقررنا تصريف كل ذى نفيسة وقيمة مما بقى لدينا من السلع وإيداعها أمانة لدى الأخصاء من أصدقائنا ، ولما كان جل بضاعة حماى من التوابيت (وهو كما تعلم سيد

حانوتية المدينة) فقد قررنا إخفاء الصفوة المختارة من تلك التوابيت ، و إنى أرجوك بصفتك من أخص أوليائنا أن تعمل على إنقاذنا من هذه الكارثة ، ومن ثم قد بعثت إليك بأحد هذه النعوش لتخبئه لديك فى غرفتك حتى نسترده أعز الله إخواننا وأصحابنا وأكرمهم وأحسن عنا جزاءهم وأبقاهم لنا ذخراً وسنداً وعصمة فى النكراء واللأواء فلولاهم لأناخ علينا الدهر بكلكله وعضنا البؤس بنابه ، ولن أخالك تضن علينا بهذه المعونة ، ولا سيما حين تعلم أن النعش لن يبقى لديك أكثر من أسبوع ، هذا ولقد أرسلت إلى كل من عهدت فيه المودة والعطف من أصحابنا تابوتاً يحفظه لديه وديعة — اعتماداً على مكارم أخلاقه وثقة بجميل معونته وحسن مواساته .

المخلص

« ايفان جاوين »

« لبثت ثلاثة أشهر بعد هذا الحادث أتداوى من علة تهدم الأعصاب ، أما صاحبنا نسيب الحانوتى فقد تلافى — بفضل معونة الإخوان — رأس ماله الذى كان قد أشرف على الهلاك ، واتخذ لنفسه حانوتاً جديداً ، وهو الآن يزاول مهنته على أتم حال من الرواج والنجاح — يجهز مواكب الجنازات و بيع أحجار المقابر ومعالم الأضرحة ، على أنه قد بلغنى عن تجارته شىء من الكساد ، فترانى كلما عدت إلى منزلى مساء وهممت أن أدخل غرفتى ملكنى الرعب وتولانى الفزع خشية أن أجد بجنب فراشى « تربة » أو « شاهداً » .

الطفل الشحاذ فى عيد الميلاد

للقصصى الروسى الأكبر : فيدور روستوفسكى

كان طفلاً صغيراً فى السادسة من عمره أو أقل ، وقد هب من منامه صباحاً فى حجرة ضيقة مظلمة رطبة قارة ، وكان عليه جلباب رث ممزق ، وإن زمهرير الشتاء ليقضقض أنيابه ويرعد مفاصله ، وأنفاسه تنبعث من فمه أبخرة بيضاء ، وجلس على حافة صندوق قديم وأقبل يلهو بإرسال أنفاسه المتكاثفة البيضاء يلذه انطلاقها ثم اختفاؤها — ولكن هذه اللذة الوقتية الوهمية كان يتخللها لذعات جمرة الجوع تتأجج فى أحشائه — لقد جعل فى خلال ذلك النهار يذهب مراراً إلى فرشة قذرة بالية ببعض أركان الحجرة تضطجع عليها أمه المسكينة العليلة .

ما الذى جاء بها إلى هذا المكان ؟ لعلها أتت بغلامها من بعض قرى الريف حيث ألحت عليها الفاقة والمسكنة فأقحمتها تلك المدينة لالتماس الرزق فنزلت بهذه الحجرة ، ثم لبثت أن اعتلت .

وكانت ربة المنزل تؤجر حجرات بيتها المظلم المتهدم إلى المساكين وأبناء السبيل وأهل الفاقة والعسر ، لرخص أجورها ، وكانت قد سيقت إلى مركز البوليس منذ يومين ، فانتهزها معظم السكان فرصة يتقون بها الدفع

فهربوا ، ولم يبق إلا رجل سكير قد طاب له أن يبادر عيد الميلاد باللهو فسكر سكرة ، ما برح من صدمة حمياها ، مع الأموات ، منذ أربع وعشرين ساعة ، وفى حجرة أخرى عجوز فى الثمانين كانت فى سالف الأزمان مرضعاً ، وقد أخنى عليها الدهر وتركها تموت منفرده وحيدة ، تواصل الأنين من آلام الروماتزم ، وكانت لا تزال تزجر الطفل الصغير وتنهره كلما دنا من باب حجرتها حتى أخافته فتحاماها .

لقد أصاب الطفل فى ردهة النزل من ماء الجرة ماء أطفأ به غلته ، ولكنه لم يجد من الزاد ما يمسك به من رمقه ، وقد حاول مراراً أن يوقظ أمه ولم يفلح ، وأخيراً بدأ يخاف الظلام المتكاثف ، إذ غابت الشمس ولم يشعل المصباح إنسان .

وأقبل الطفل فى سدفة الإظلام يتلمس وجه أمه ويجسه بيده ، وتعجب كيف لا تتحرك وقد عاد جسدها أبرد من الجدار ، وقال فى نفسه ما أشد البرد فى هذه الحجرة ثم وقف برهة مطرقاً واجماً وقد نسى أن يرفع كفه عن كاهل أمه الميتة ، ثم إنه انثنى عن الجثة الهامدة وأقبل على أصابعه الصغيرة ينفخ عليها ليدفئها ، ثم تلمس قلنسوته البالية فى أركان الحجرة فلبسها وغادر المكان ، لقد كان بوده أن يتركه قبل ذلك بمراحل ، ولكن منعه من هذا هرير كلب بشع على باب حجرة مجاورة كان ينخب أحشاءه بشدة نباحه وعوائه ، فما هو إلا أن ذهب حتى انطلق الغلام .

ولما صار فى طرقات المدينة هاله من ضجة ضوضائها وغرائب مناظرها

ما هاله ، ولم يك أبصر المدن قط ، يا للعجب العجاب ! ما هذه الأنوار والأضواء ؟ — أليل أم نهار ؟ إن عهده بالليل فى موطنه الريفى ومسقط رأسه ، أن يكون مظلماً فاحم الظلمة ، اللهم إلا ذبالة ضئيلة تزيد الظلام ظلاماً ، وعهده بالطرقات فى قريته ، مقفرة من الإنس موحشة — وبالبيوت مرخاة السدول مغلقة النوافذ — وبالأهالى يحتجبون فى دورهم ويدعون السبلُ والطرقات للكلاب تعوى بها وتنبح الليل الطويل أفواجاً ، مئات وآلافاً ، . . . . على أن ذلك الريف كان خيراً له من هذه المدينة ، لقد كان واجداً فيه دفئاً وقوتاً ؛ أما ههنا فليس إلا القرة والجوع ، أما لو يمن الله عليه بكسرة من الخبز يابسة ! . . . . ثم ما هذه الأضواء اللامعة ، والأنوار الساطعة ، . . . . وهذا الهرج والمرج ، . . . . وهاتيك الجلبة واللجب والضوضاء ! . . . . وهذه الجموع المكتظة والجماهير المحتشدة وهذا الضغط والزحام ! . . . . المركبات المزخرفات والجياد الصافنات . . . والبرد ، البرد القارس يخترق الجلد واللحم ويرسب فى العظام ، كحد الحسام ، أواه من البرد ؟ والأبخرة المتجمدة تنبعث من أشداق الخيل سحباً كثافاً ومن خياشيمها ، والجليد يستطير صفائح وشظايا تحت سنابكها تصطك بحصباء الطريق صلاله .

يصيح الحصى تحت أقدامها فنوناً ويصطخب اليرمع

ويالله من كية الجوع فى الأحشاء ولذعته ! ألا كسرة من رغيف تمسك من حشاشة نفس متساقطة ! . . . . وبدأت أصابعه الضئيلة تكايد أمض

الألم، ومر به رجل موسر فانصرف عنه زاوياً وجهه كيلا يراه .

وها هو ذا شارع آخر، ما أوسع وما أفسح ! وما أسرع عدو هؤلاء الناس وأشد استباقهم وأعلى صياحهم ! وما أسطع هذا الضوء ما أشد لألاء هذا الضوء وخطفه للأبصار، وما هذا الذى أراه ؟ نافذة عظيمة ! ووراء زجاجها . . . . شجرة (صناعية) عالية .... تسمو صعداً إلى سقف المكان هذه شجرة عيد الميلاد قد نيطت بها مصابيح شتى الأنوار والألوان ؟ وعلق عليها أفانين اللعب والتحف، والنفائس والطرف، والفاكهة والريحان، والهدايا الملفوفة فى مفضض الأغلفة ومذهبها، ناضرة الأوراق مفتحة الأكمام، دانية قطوفها من برتقال، ككرات الذهب الزلال، وتفاح، كخدود الملاح، ورمان كنواهد الحسان، وعرائس فى الحلل القانية الزاهية، وخيل مشرئبة سامية، وما هؤلاء الصبية المنبثون فى أرجاء الحجرة يضحكون فرحاً، ويثبون مرحاً، لاهين لاعبين فى رغد ونعيم من مطعم مرىء، ومشرب هنىء، وما هذه الصبية قد شرعت ترقص مع أحد الغلمان ؟ ما أحلاها وما أحلاه ! وإنك لتسمع عزفات الموسيقى من خلف الزجاج ! لقد سرت عدوى هذا السرور والطرب إلى فؤاد الطفل المعذب المسكين وهو ينظر إلى الأسرة المحبورة من وراء الزجاج فطفق هو أيضاً يضحك مثلهم وعلم الله لقد كان الجوع يضرم حشاه ويحمى على كبده وكانت أطراف يديه وقدميه تكاد تسقط من وخزات القر ولذعاته، وأحس فجأة أثناء ضحكه بآلامه وأوجاعه، فشرع يبكى وينتحب وأقبل يعدو .

ولكن ما هذا ؟ هذا منظر أعجب وأغرب وخلف هذه النافذة شجرة أزهى وأزهر ، وثمت موائد ترزح تحت أعبائها الفادحة من الكعك والفطائر ، بين حمراء وصفراء ، محشوة باللوز والصنوبر والجوز ، وعلى الموائد أربع غانيات فى الحلى والحلل يحبون بهذه الطيبات كل وارد وصادر ، وباب البيت مفتوح على مصراعيه لكل طارق ، فخيل إلى الطفل البائس أنه لا بأس من دخوله هو أيضاً ، فسما إلى الباب فى رفق ولطف « سمو حباب الماء جاشت غواربه » ثم انسل منه كلمح البرق فصار وسط القوم ، يالله ! لقد صاح الكل صيحة كادت تشق سقف المكان شطرين ، وألاحوا بأيديهم كالمشمئزين المتأففين ، وبغض البعض فدفع فى صدر الطفل يطرده ، ثم أقبلت عليه سيدة مسنة فدست فى يده قرشاً وساقته إلى خارج الدار ، رحماك اللهم ! ما كان أشد ذعره ورعبه ! لقد سقط القرش من كفه ، فنزل رناناً ينحدر على درج السلم ، لقد كان البرد شنج أصابعه فلم يستطع ثنيها على القرش ، وانطلق يعدو راكباً رأسه لا يلوى على شىء ولا يدرى أيان يذهب ، لقد أحس كربة البؤس ، ولوعة اليأس ، وذاق مضاضة الوحدة والوحشة والانفراد والغربة وجعل ينفخ على أصابعه المتجمدة ليدفئها ويبكى وبينا هو كذلك إذ أبصر مشهداً آخر ، أعجب مما سبق وأغرب — طائفة من الناس مزدحمة على نافذة تجلى عليهم من وراء زجاجها ثلاث عرائس من الشمع فى حلل « من سندس خضر وإستبرق وحلوا أساور من فضة » .

تحسب العين أنهم جد أحيا ٠ ء لهم بينهم إشارة خرس

يغتلى فيهم ارتيابى حتى تتقراهم يداى بلمس

وهذه العرائس تمثل ثلاث قيان يعزفن على الأوتار ، وهن يتلاحظن ويتغامزن ، ويملن الأعناق طرباً ويحركن الأشداق إنشاداً وشدواً ، ويخيل إليك أنهن يتغنين ، ولولا زجاج النافذة لسمعت أصواتهن ، وظن الطفل لأول وهلة أنهن أحياء ، فلما أدرك أنهن عرائس ، ضحك وقهقه ، ولا جرم ، فهو لم ير مثلها قط وما خطر بباله أن مثلها يحتمل أن يكون بحال ، لقد كان بحاجة إلى البكاء ، ولكنه ضحك برغم أنفه ، إذ كان منظر العرائس وعجيب حركاتهن مما يضحك الثكلى .

فى هذه اللحظة أحس بيد تجذبه من ورائه فالتفت فإذا غلام وغد لئيم قد لطمه على جبينه ثم اختطف قلنسوته وفر هارباً ، فخر الطفل إلى الأرض صريعاً ، وتصايح الملأ وارتفع ضجيجهم سروراً وطرباً ، ونهض الطفل إلى قدميه بعد جهد ، وإنه لينتفض خجلا ووجلا وقرة وخصراً ، وأقبل يعدو ثم يعدو ، كأن به لوثة جنون ، حتى أتى باباً فولجه وهو لا يكاد يدرى ما يفعل ، فأفضى إلى ساحة ألفى بها كومة من الحطب فاستكن وراءها يفترش الثرى ، منكمشاً متقبضاً كالقنفد وهنالك أحس بشىء من السلام والطمأنينة ، وألفى فى الظلام المخيم أماناً من خوف وأنساً من وحشة ، وقال فى نفسه : « أنا الآن فى عصمة من شر أولئك السفهاء » .

وكذلك استمر منقبضاً متجمعاً وراء تلك الكومة لا يكاد يمسك أنفاسه من الذعر ، وما لبث أن شعر بالراحة التامة ، فزال الألم من يديه ورجليه

وأحس بالدفء كما لو كان جالساً إلى موقد صلاء ، ثم انتفض انتفاضة فجائية ، وكأنما قد أخذ النوم بمعاقد أجفانه ، ومرحباً بالنوم بعد طول الكد والإعياء ، وقال فى نفسه : « لآخذن بقسط وافر من النوم ثم لأذهبن فأجلون ناظرى بلذيذ منظر تلك العرائس ، ما أحلاها وما أجملها لكأنها والله حية تتكلم ! » . . . . ثم خيل إليه كأنه يسمع صوت أمه تتغنى بتلك الأنشودة التى تستدرج بها الأمهات طيف النعاس لأطفالهن .

« النعاس النعاس ! ما أحلى النعاس ! » .

و بعد ذلك سمع صوتاً رقيقاً يهمس على كثب منه .

« ادن منى أيها الطفل ، واجن من شجرة الميلاد طيباتها ! » .

وظن أولا أنه صوت أمه تناديه ، ولكنه تبين بعد إصغاء أنه صوت آخر ، ترى من صاحب هذا الصوت ؟ إنه لا يراه ، ولكن يحس شخصاً يحنو عليه فى الظلماء و يعتنقه ، و يمد الطفل يديه . . . . يا للعجب ! ما هذا النور الساطع ! أى طوفان من الضوء ينهمر انهماراً و يندفق اندفاقاً . . . . وأى شجرة زاهرة باهرة ! . . . . وأين هو الآن ؟ وسط أضواء كوكبية اللألاء ، ومن حوله العشرات من العرائس البراقة . . . . عجباً ! عجباً ! إنها ليست بعرائس ، إنها صبية صغار مثله ، بين بنات و بنين ، ما شئت من حسن وحلاوة ، و بهجة وطلاوة ، صور ملاح ، ووجوه صباح ، والكل بين لاه ولاعب ، وممازح ومداعب ، وواثب وراقص ، ومقبل وناكص ، وجائل ، وصائل ، ثم أحدقوا به وأمطروه من شفاههم اللمياء وثغورهم

الوضاحة وابلاً ثرا من اللثمات ، ولم يألوه ضما وعناقاً ، وأبصر أمه على كثب منه ترنو إليه بالحاظ من الفرح براقة .

وصاح بها يقول :

« أماه ! أماه ! ما ألذ المقام ههنا وما أطيبه ! » .

ثم أقبل على الأطفال باللثم والعناق ، وأراد أن يحدثهم حديث العرائس التى بصر بها فى تلك النافذة آنفة الذكر ، وناداهم قائلا :

« خبرونى بربكم أيها الأطفال من أنتم ومن أين جئتم ، وكيف كان لقاؤنا ههنا واجتماعنا ؟ » .

وطفق يضحك ، وقلبه بالسرور ينبض ، وبالحب المفرط لأولئك الأطفال يخفق .

فقالوا جميعاً :

« هذه شجرة السيد المسيح ، ولا يزال السيد المسيح يعد مثل هذه الشجرة فى أعياد الميلاد لمن راح من الأطفال فى هذا العيد محروماً » .

واتضح له أن كل أولئك الأطفال كانوا من طائفة البؤساء مثله ، فبعضهم كان ممن ألقى به رضيعاً على أعتاب بيوت الناس فمات ثمث برداً وظمأ ، و بعضهم ممن هلك جوعاً من الفاقة ، و بعضهم قضى قحطاً وحرماناً فى الطرقات المثلوجة بعد خروجه من ملجأ اللقطاء عقب انقضاء مدته هنالك ، و بعضهم مات جوعاً وعطشاً على ثدى أمه اليابس ، و بعضهم أودى اختناقاً فى مركبات القطار المزدحمة من فساد هوائها وخبثه ، . . . .

وها هم الآن قد صاروا كلهم ملائكة فى حضرة المسيح المقدسة ، شيعته وصحابته ، وهو ذاته قائم وسطهم لا يألوهم حفاوة ولا إكراماً ، يبارك فيهم وفى أمهاتهم البائسات الآثمات ، . . . . وبناحية من المكان الأمهات ماثلات يبكين ، وكل واحدة تعرف بين الأطفال ابنها أو ابنتها ، وترى الأطفال يعدون سراعا إلى أمهاتهم فيقبلونهن ويمسحون دموعهن بأكفهم الصغيرة ويقولون لهن لا تبكين ولا تحزن ، فلقد جعل الله بعد عسر يسراً وبعد ضيق فرجا ، وبعد شقوة سعادة .

* * *

وفى صبيحة تلك الليلة — ليلة عيد الميلاد — عثر البواب على جثة طفل صغير كان قد اختبأ وراء كومة من الحطب ، ثم هلك جوعاً وبرداً وتجمد جسده هنالك ، وعثر أيضاً على أمه . . . . لقد ماتت قبله ، . . . . ثم تقابلا أمام عرش الله فى الملكوت الأعلى . . . .

الأمير وابنـــه

للقصصى الروسى المشهور ماكسيم جوركى

كان فى القرون الغابرة ببلاد القرم أمير عليها اسمه « الخان على » وكان له ابن يدعى محموداً .

وكان ذلك الأمير شيخاً هرماً ولكنه كان صبا بالغانيات ، لديه منهن طائفة عديدة ، وكن يألفنه و يصفينه الحب والوداد ، لأنه كان على رغم شيخوخته لايزال يحتفظ بجانب عظيم من قوة شبابه وحميا صباه ، وكان لايزال طباً بمايستصبى الفتيات ، بصيراً بأساليب اللهو والغزل ، يعجب النساء و يطربهن بما يبديه فى مطايبتهن وملاطفتهن من حدة الشغف ونار الصبابة ، والنساء ، أنار الله بصيرتك وألهمك الحكمة والصواب ، إنما يروقهن من الرجال القوى المتين ، النارى المزاج الذى كان غرامه دفاع الحريق ، ولو كان مغضن الوجه أشيب القذال ، ولايروقهن الشاب الطرير ، و إن كان مؤنث الشمائل مخنث الحركات . والجمال ، رزقك الله الفطنة والأرب والذكاء ، ليس فى نظر النساء هو الخد الأحمر الأسيل والبشرة الملساء ، و إنما القوة والبأس والهمة العلياء !

لقد كانت محاظى ذلك الأمير وسراريه يألفنه و يوددنه ، ولكنه كان يؤثر على سائر نسائه البالغ عـددهن ثلاثمائة سرية من كافة الأجناس

والأصناف ، غانية روسية الموطن سبية إحدى غاراته الشعواء التى كان لايزال يشنها على بلاد الروس .

وكان كثير الخلوة بتلك الفتاة الروسية يمضى معها أطيب الأوقات فى برجه المشيد المطل على البحر ، حيث كان قد أعد لها كل ما تصبو إليه المرأة من لذائذ العيش ومتع الحياة — مناعم المطاعم ، ومطارب المشارب ، وبدائع الطرف ، وروائع التحف ، وزخارف الحلى والزينة ، من شنوف وأقراط وعقود وقلائد وأساور وخلاخيل ودمالج ، وكرائم الجواهر ، من ماس وياقوت وجمان وزبرجد وفيروزج وعقيان ، وعجائب الحيوان ، من قردة وسنانير وغزلان ، وغرائب الطير من قمرية وببغاء وكروان ، — وأغلى وأنفس من كل هذه وأجل وأعظم ، ما كان يتحفها به من عواطف وجده المضطرم وزفرات غرامه المحتدم .

وكذلك فى حضرة تلك الغادة الهيفاء بالبرج المشيد ، كان الأمير ربما قضى الأيام العديدة يلهو ويلعب ترويحاً للنفس من عناء الأعمال وتكاليف الحياة ، ملقياً شؤون الأمارة على عاتق ابنه محمود واثقاً بأنه إنما يسلم مقاليد الدولة إلى خير نهاض باعبائها ، طب بادوائها . وكان ابنه محمود عند ظنه به وأبعد ، فكان يواصل غارات أبيه على بلاد المسكوف وغزواته ، ويعود بالأسلاب والغنائم ضمنها السبايا الفاتنات . مكللاً بالمجد والفخار ، مخلفا وراءه فى بلاد الأعداء ، الخزى والعار ، والدمار البوار ، وآثار السيف والنار .

وعاد محمود ابن الأمير مرة من إحدى غاراته على بلاد المسكوف منصوراً ، فأقام أبوه احتفالا لتكريمه ، دعى إليه أعيان الدولة وسراتها ودارت كؤوس الراح ، واصطكت الأقداح بالأقداح .

وليلتنا والراح عجلى يحثها صنوف غناء للزجاجة حادى

وطاشت الأحلام وصدحت الأنغام ، وتجاوب مزهر وجران ، وتناشد الفرسان ، ملاحم الميدان ، ولما خالطت الرؤوس ، حميا الكؤوس ، وتمايلت القدود ، لحنين ناى وعود ، وذهبت العقار ، بالوقار ، هتف الوفود ، باسم الفارس محمود ، فنهض الشيخ والده ، فحمد الله عز وجل وصلى على النبى وعلى آله وصحبه ، ثم وجه الخطاب إلى ولده محمود فقال :

« الحمد لله الذى أرانى حمية فتوتى فيك تتجدد ، وجمرة شبيبتى فى دمك الملتهب تتأجج وتتوقد ، وتالله ما باليت ، ولى غلام مثلك يرثنى ويرث أمارتى ، أتمادى بى العمر فى هذا المعمور أم ضمنى اللحد بين الاجداث والقبور ، وما مات من كنت خليفته ، ولا غاب عن الوجود من أحييت فى الوجود ذكرته وأعدت سيرته ، فماذا تبتغى منى جزاء على همك العلياء ، وشيمك الغراء ، سلنى أهبك ماتشاء » .

وما كاد الشيخ يتم كلماته حتى وثب الفارس محمود وثبة الليث من عرينه ، وعيناه تتوقدان كأنهما شعلتان ، ثم قال :

« والدى ! هبنى سريتك الروسية الحسناء ! »

فخفقت أحشاء الشيخ خفقة انتفض لها جنانه ، ومشى لها قلبه فى صدره ،

وأطرق مليا ريثما يربط نافر جأشه ، ثم رفع رأسه وقال :

« خذها ! متى انتهت هذه الحفلة فخذها ! »

فبرقت أسرة الفارس محمود سروراً ، وتلألأ الفرح فى وميض مقلتيه ، ثم نصب قامته وخاطب أباه قائلا :

« والدى وأميرى ومليكى ! شد ما أثقلت كاهلى بهذه المنة التى تجل عن الحصر والإحصاء وتسمو عن متناول الحمد والثناء ، وما أنا وايم الحق إلا عبدك وملك يمينك ، ونفسى فداك وروحى رهينة أدنى إشارة منك ، فمرنى أبذلها فى أيسر ما تشاء ، ومرنى أمت فى سبيلك ألف موته ! »

« لا أريد منك شيئاً » . بذلك نطق الشيخ ونكس على صدره رأسه الهرم المجلل بالشيب والوقار ، المكلل بكل طارف وتليد من تيجان المجد والفخار .

ولما انفضت الحفلة خرج الأمير ونجله إلى العراء وسارا صامتين مطرقين و بعد برهة قال الأمير :

« أرى ماء الحياة فى بدنى لا يزال ينضب و ينضب على توالى الأيام ، وأرى عودى يجف ويذوى ، و يزداد على مر الساعات جفافاً وذواء وأرى حرارة حواسى تخبو وتبرد ، ووقدة دمى تفتر وتخمد ، ولقد كان لى فى هذه الفتاة الروسية وفى شدة عطفها على وحنانها منبع أنس وصفاء يفيض على مهجتى سروراً وطرباً و يشعل جذوة الحياة فى كيانى كلما كاد يطفئها الوهن والهرم ، و يودى بها الفناء والعدم ، فخبرنى يا بنى ، أحقاً تجد فى نفسك

بها كل هذا الوجد ، وتحتاجها كل هذه الحاجة ؟ فمالك لا تدعها لى وتأخذ بها مائة من أجمل نسائى ؟ »

فأرسل الفارس محمود من أعماق صدره زفرة حارة مديدة ، واستمر على صمته و إطراقه .

وكان الظلام حالكا متكاثفاً ، وقد خفى القمر والكواكب تحت أصفق حجاب من السحاب .

وقال الأمير على :

« ما أحسب إلا أنه قد دنا أجلى ، وأوشك أن ينعانى النعاة ، وكأنى والله هامة اليوم أو غد . أجل : إنه لم يبق لى فى هذه الحياة إلا أيام معدودة ، وهذه الغادة الروسية ، هى أخرى متعات عمرى ، وحسنات دهرى ، هى سؤر كاسى وآخر ذبالة فى نبراسى ، وهى البقية الباقية من زادى وذخيرتى ، وآخر سهم فى كنانتى ، إنها لتعرفنى وتفهمنى وتحبنى ، فمن يخلفها على إذا فقدتها ، من لى أن خلت منها يدى وعينى — من يسد مكانها و يغنى غناءها ؟ — من لى — إن سلبتها — بالخل الوفى ، والخدن الصفى والحميم الولى ، من لى بالصاحب الصديق ، والحدب الشفيق ، والحبيب الألوف ، والودود الرؤوف ، من لى بكل ذلك وأنا الشيخ الهرم ، الواهن المتهدم ، من لى ، ثم من لى ؟

يا من لشيخ قد تخـدد لحمه أفـنى ثلاث عمائم ألوانا
سوداء حالكة وسحق مفوف واجد لوناً بعـد ذاك هجانا

قصر الليالى خطوه فتدانى وحنون قائم صلبه فتحانى
ذهب الشباب فلا شباب جمانا وكأن ما قد كان لم يك كانا
وثنيت كفى يا جمان على العصا وكفى جمان بثنيها حدثانا

كل ذلك والفارس محمود صامت مطرق لا يفوه ببنت شفة .

واسترسل الشيخ الأمير قال :

« وكيف يطيب لى عيش ، ويلذ لى فى هذه الحياة مقام ، وأنا أعلم أنك بها تلتذ وتستمتع وأنها تلثمك وتضمك ؟ ولتعلمن يا بنى إنى وإياك — إزاء المرأة — لسنا بالولد والوالد كما تعهد ، كلا لا والد ولا مولود فى سبيل المرأة ! بل القرن والقرن ، والنظير والنظير ، والمزاحم والمزاحم ! إنما نحن من حول المرأة الوحوش الضارية ، والسباع العادية ، والذئاب العاوية ! واهاً ! واهاً ! ليت جراحى القديمة التى تعم ندوبها وآثارها جسدى قد نكئت جميعاً فطفقت تفيض بدمائى حتى أموت . ليت صباح الغد لا يطلع منى إلا على جثة هامدة ، وجمرة خامدة ! »

لبث الفارس محمود واجماً مطرقاً .

ثم انتهيا إلى باب الحريم ، ولبثا بإزائه صامتين منكسين برهة طويلة ، تلفهما حنادس الليل البهيم ، والسحب فى ميادين الخضراء تتسابق من فوق رأسيهما وتتبارى ، والرياح تعزف على أفنان الدوح وتتغنى .

وقال محمود فى خفوت :

« أبتاه ! لقد طالما أحببتها وهمت فيها صبابة » .

قال أبوه :

« أعلم ذلك ، وأعلم أيضاً أنها لا تحبك » .

قال محمود :

« أبتاه ! إنى كلما ذكرتها ذاب قلبى شوقاً وتفطر لوعة ووجدا »

قال الشيخ :

« وما بى والله من حرقة الجوى ونار الهيام أشد مما بك وأبرح » .

ثم عاودا السكوت والإطراق ، وتنهد محمود وقال :

« الآن تبين لى صدق ما قال الحكماء فى المرأة ، من أنها خدعة الشيطان ، وآفة الإنسان وأنها مدعاة الهموم ، ومنفاة النعيم ، ومبددة شمل الخلان والآلاف ، ومازجة كأس التصاف ، بالسم الزعاف » .

قال الشيخ :

« إنك لتنثر لآلىء الحكم والأمثال وهيهات لا تداوى الحكمة داء سببته النساء ، ولا تأسو الفلسفة جراح الأعين النجلاء » .

قال الفتى :

« أبتاه ! جدير بنا أن نتراحم ونتعاطف ، وقد قال الشاعر » .

أصغت إلى العشاق أذنى مرة ومن الجميل تعاطف العشاق

أجل ومن الجميل تعاطف العشاق ، فارحمنى أرحمك يا أبتاه ! »

فرفع الأمير رأسه ونظر إلى ابنه نظرة ملؤها الحزن والأسف وقال :

« لا أعرف من حيلة سوى قتل الفتاة » .

قال محمود :

« فلنقتلنها إذاً ! »

فأطرق الشيخ ملياً ، ثم رفع رأسه وقال :

« إنك لتحب نفسك أكثر مما تحبها » .

قال الفتى :

« أجل وأنت فى ذلك مثلى » .

وعاودا السكوت ثم قال الفارس محمود :

« ألا تزال ترى معى وجوب إعدامها ؟ »

قال الشيخ حيران ولهان قد دلهه الوجد وخبله الجوى :

« مهما يكن من الأمر لن أمنحكها ، لن أقدمها إليك بيدى » .

قال الفتى :

« وأنا لا أستطيع بعد ذلك صبراً ، لقد بلغ السيل الزبى ، فانتزع مهجتى من بين أحشائى و إلا فأعطنيها » .

أطرق الشيخ واجماً :

وقال الفتى :

« فلنقذفن بها فى غمار البحر من فوق هذه الصخور » .

فأجاب الشيخ كالذاهل العازب اللب مردداً كلمات ابنه كالصدى .

« لنقذفن بها فى غمار البحر من فوق هذه الصخور » .

ثم دخلا الحريم فصعدا إلى مقصورة الغادة الروسية فألفياها راقدة على

فراشها ، فوقفا على رأسها وأدمنا إليها النظر وتحدرت دموع الشيخ على لحيته البيضاء كأنها الدرر اليتامى ، وفرادى اللؤلؤ المنثور والتؤامى ، والفارس محمود تأنج مقلتاه وتقذف بالشرر ألحاظة ، ويحرق نابه غيظاً وحنقاً ، ويحاول جهده كتمان وجده المتسعر ولظى هيامه ، ثم عمد إلى الغادة فأيقظها .

وهبت الحسناء من سنتها وضاحة الجبين ، مكحولة العينين بالسحر المبين ، ولم تبصر الفتى محموداً ، وإنما أبصرت الشيخ فاشرأبت إليه تجلو عليه من شفتيها أبهى عقيقتين ، ومن وجنتيها أشهى تفاحتين ، ثم قالت للأمير :

« قبلنى يا ليثى الغضنفر ويا نسرى الطماح »

فقال لها الشيخ برفق وحنان :

« انهضى وسيرى معنا »

وإذ ذاك أبصرت الفتى محموداً وشاهدت فيض مدامع الأمير ، فأدركت ما هنالك .

وقالت :

« إنى آتية ، آتية لا إليك ولا إليه ، أهكذا قررتما فيما بينكما مصيرى ؟ ذلك وأيم الله قرار القلوب الجلدة القوية ! إنى لآتية »

وذهب الثلاثة إلى البحر فى هدوء وصمت ، وكانت الريح تصيح وتعول ، كانت الفتاة — كشأن كل حسناء هيفاء — ضعيفة الأسر واهنة ،

فسرعان ما كلت وأعيت ولكن الكبرياء والشمم والعزة منعتها أن تعلن كلالها ، فواصلت المسير على مضض .

ولما رأى الفتى تباطأها من خلفهما قال لها « ما بالك ؟ أتخافين ؟

فبرقت عيناها وأرته قدميها تدميان .

فمد إليها الفتى ذراعيه وقال :

« هلمى إلىّ أحملك » . ولكنها طوقت حبيبها الشيخ الهرم بذراعيها ، وحملها الشيخ كأنها فى يديه ريشة ومضى بها ، وجعلت تدفع أغصان الشجر عن وجهه تفسح له مجال السير خشية أن يناله من قضبانها وأشواكها أذى ، وبعد طول الكد والنصب والجهد الجهيد ، دنوا من البحر وسمعوا جرجرة أمواجه ، وهنا قال الفارس محمود ، وكان يسير خلف أبيه : « اسمع يا والدى ! تأخر ودعنى أسر أمامك ، فإنى أخاف أن يدفعنى جنون الحب إلى أن أطعنك بخنجرى هذا فى قفاك » .

فقال له الشيخ :

« تقدم إذا ، نفذ الله فىّ ما حدثتك به نفسك الصبة وفؤادك الولهان ، وإلا فغفر لك غفراناً واسعاً ، وليفعل الله ما يشاء ، إنى ، ورب ، لغافر لك صافح ، فإنى أعرف ، ما يجده العاشق الملتاع ويكابده ، وأعرف إلى أى حد يدفع الحب أسيره » .

وأخيراً بلغوا الساحل وامتد أمامهم البحر حالك العباب مرهوباً ، تتغنى أمواجه السوداء غناءها الحزين وتئن أنيناً !

وأقبل الأمير على الفتاة فقبلها وقال لها :

« وداعاً ! وداعاً ! »

وانحنى لها الفارس محمود تحية وقال لها :

« وداعاً ! وداعاً ! »

ونظرت الفتاة إلى الموج المصطفق المتلاطم وانثنت مرتدة مجفلة ، وضمت إلى صدرها يديها ، وقالت :

« اقذفا بى فى حومة العباب ! »

فمد الفارس محمود نحوها يديه وتنفس الصعداء ولكن الشيخ سبقه إليها فاحتضنها وضمها إلى صدره بقوة وحرارة ثم قبلها ، و بعد ذلك رفعها فوق هامته وقذف بها فى التيار من وراء الصخرة ،

وكان الموج من تحتها يهدر ويجرجر ، ويجلجل ويزمجر ، وقد تناهى اصطخابه وضجيجه فلم يسمع الرجلان صوت مصرع الفتاة إذ لم يصل إلى آذانهما جرس ولا صيحة ، وخر الشيخ إلى الصخور من خور ، وطفق ينظر صامتاً فى أعماق الليل البهيم ، ولبث ابنه قائما على رأسه ، ساتراً وجهه بيديه ، مسلوب النطق والحركة كأنه صخرة صماء ، وعلى هذه الحال لبثا برهة طويلة .

وأخيراً قال محمود :

« هلم بنا إلى القصر يا أبى » .

قال الشيخ ، وكأنما يستمع إلى شىء يرهف له أذنيه ،

« تمهل ! تمهل ! »

ومر الوقت فى منسربه وضج الموج فى مضطربه ، وعج العباب فى مصطفقه ، وعصف الإعصار فى منخرقه ، وطلا الليل جوانب الكون بمداد ، وألبس الديجور ثكلى الطبيعة ثوب حداد !

وقال محمود لأبيه :

« هلم يا أبت إلى القصر »

فأجابه الشيخ :

« رويداً ، رويداً انتظر هنيهة »

وكم نادى الفتى أباه ، فقال « يا أبت ! هلم بنا إلى القصر » والشيخ صامت مطرق ، لا يجد عند نفسه الصبر على فراق المكان الذى فيه فقد عماد وهنه وشيخوخته ، وأنس وحدته ووحشته ومتعة البقية الباقية من مدته .

بيد أنه ما زال لكل شىء غاية ، ولكل حدث نهاية ، لقد نهض الشيخ أخيراً حمىّ الأنف مستكبراً ، ثم عبس وتولى ،

ولكنه وقف بعد خطوات وقال :

« ايان أذهب الآن وعلام ؟ وما حياتى بعدها ولقد كانت حياتى ؟ وما أحسب أنى واجد منها فى سائر النساء بديلا ، ولن ألقى من بعدها من يصفينى الحب والوداد ، وما بقاء الإنسان فى الدنيا أن خلت ممن يألفه ويهواه ! »

قال الفتى :

« حسبك فى الطارف والتلاد من حسبك ومجدك وفخارك أنساً وغبطاً ونعيما ! »

قال الشيخ :

« ألا ليت لى بكل ما ذكرت من المجد والسؤدد والفخار لثمة من شفتها اللمياء ، ونظرة من عينها الحوراء ، وما السؤدد والمجد والحسب إلا زور ، وباطل وغرور ، وأوهام واهم ، وأحلام نائم ، والحقيقة الوحيدة فى هذه الحياة هى الحب ، وما الحياة بلا حب إلا العدم بعينه ، ومن عاش بلا حبيب يمزج بروحه روحه كان خليقاً أن يعد فى الموتى ، وداعاً يا ولدى بارك الله فيك وعليك وحواليك »

ثم استقبل البحر وصاح الفتى :

« أبى ! أبى ! »

ولم يقل خلاف ذلك شيئاً وما عساك تقول لرجل أصبح يرتاح للموت ارتياح الظمآن للزلال ، ويرى فى الهلاك قاصية المنى والآمال ؟

وقال الشيخ :

« دعنى أرحل ! »

قال الفتى :

« الله أكبر ! »

وأجاب الشيخ قائلا :

« سبحانه ، جل شأنه ، إنه يعلم ، وسواه لا يعلم ! »

ثم هرع إلى الصخرة فألقى بنفسه من ذؤابتها فى حومة الخضم ، ولفرط سرعته لم يستطع منعه غلامه ، ولم يرتفع لمصرعه ومهواه جرس ولا نبأة ولم يسمع سوى هدير الموج وعزيف الريح .

وأشرف الفتى من ذروة الصخرة على الماء

وقال بصوت مسموع :

« اللهم هبنى مثل ذلك الجنان الشهم الجرىء ! »

ثم انقلب إلى مأواه من ساعته .

كذلك هلك الأمير على وخلفه ابنه محمود على أريكة القرم .

حديث ليـــلة

للروائى الروسى ماكسيم جوركى

طوحت بى الأقدار ذات ليلة من ليالى الخريف إلى مدينة موسكو فدخلتها خاوى الوفاض . بادى الأنفاض . لا أملك درهما أحرز به مسكة الحوباء . ولا أجد ملجأ أدفع به عادية العواصف والأنواء .

وجعلت أجوب أنحاءها . وأذرع أقطارها وأرجاءها . لا أستروح أملا ولا أجد متعللا . فلما ضاقت بى الأرض بما رحبت خرجت إلى بعض الضواحى حيث مراسى السفن البخارية ، وذلك مكان تراه أشد ما يكون عمرانا وازدحاما أيام موسم الملاحة ، أما فى تلك الليلة فقد كان قاعا صفصفاً ما به ديار . ولا نافخ نار . إذ كنا فى أخريات شهر أكتوبر .

فجعلت أتهادى وأتحامل من شدة الوهن والإعياء متخاذلا مطرقا أدمن النظر إلى أديم الثرى أقول عسى أن أعسر بفتات من بقايا طعام أسد به رمقى ، وعلى هذه الحال طفقت أطوف فى أنحاء تلك الضاحية القفرة الخراب أجوس خلال مصانع عاطلة ، ومنازل غير آهلة وأسواق مهجورة ، وأندية غير معمورة أناجى نفسى قائلا : « من لى برغيف وصحن طبيخ وأذهب بعدهما إلى جهنم ؟ »

رنقت شمس الأصيل للمغيب و استهلت السماء بديمة وهبت الشمال هوجاء عاصفة تصيح وتعول خلال الدكاكين والحوانيت الخالية وتحطم زجاج نوافذ الحانات والخانات الخاوية . وتستجيش مياه النهر حتى ترغى وتزبد وتنشر فى الهواء أعرافها وذوائبها الفضية ، متسابقة متلاحقة كأنها حلبة الطراد فى المضمار ، واربدت السماء واكفهرت تسح وتهطل بواكف رجاس . لقد كانت الطبيعة فى حداد وهذه مرثيتها من حولى قد نقشتها أيدى العناصر ، وأضافت إلى سطورها سطرين من شجر الصفصاف الحزين والواجم وسطرا من قارب متحطم مقلوب ظهرا لبطن مربوط فى أصول الشجر.

لقد كان مشهداً قفراً موحشاً يشعر النفس أسى والقلب حزناً ، يخيم على أرجائه البؤس والخراب واليأس والشؤم والنحس . قد أقامت العناصر فيه مأتماً من نائحات الغمام الموجعة . وصائحات الرياح المفجعة . وكأن كل ما على الأرض قد مات . وكأنى أنا أيضاً فى سياق الممات .

كنت إذ ذاك فى الثامنة عشرة من عمرى — أوان الطرب والمراح و إبان اللهو والخلاعة ! .

و بينا أسير الهوينا على الرمل الخضل المبتل أتلمس شيئاً من الزاد مما عسى أن يكون قد تخلف بأفنية تلك الحوانيت المهجورة أبصرت شبحاً جاثياً على ركبتيه فى ثياب نسائية مبللة بالمطر لاصقة بكتفيه فوقفت على رأس ذلك الشبح أنظر ماذا يصنع ، فرأيته يحفر أخدوداً فى الرمل . يحفر مجتهداً بكلتا يديه تحت دكانة صغيرة من الخشب لينفذ إلى داخلها من أسفلها

فقلت « ماذا تصنع ؟ »

وجثوت على ركبتى بجانب ذلك الشبح .

فنهض الشبح إلى قدميه وصاح ، وإذا فتاة فى مثل سنى تنظر إلى بعينين نجلاوين زرقاوين مملوءتين رعباً وفزعاً وعلى وجهها سيما الحسن والملاحة مع ما كان يلوح عليه من أمارات البؤس والأسى .

ورنت إلى طويلا ، وقد جعلت آيات الرعب والجزع تزول من عينيها ، ثم نفضت الرمل من يديها وأصلحت قناع رأسها وقالت :

« أخالك مثلى تلتمس شيئاً من القوت ، أحفر ههنا كما رأيتنى أفعل ، لقد كلت يداى من شدة التعب — أحفر ههنا — هذه دكانة بقال — ومتى جئتها من أسفل وجدت بها خبزاً وجبناً وسمكا — فهى لا تزال شغالة .

فأخذت أحفر ، وبعد قليل قعدت الفتاة بجانبى وشرعت تساعدنى .

وكذلك طفقنا برهة نحفر فى سكينة وصمت .

وقالت الفتاة وقد وهنت ذراعاها وعيل صبرها :

« أرى طريقة الحفر هذه عقيمة ، وأخشى أننا إذا انتهينا إلى هذه الدكانة من أسفلها وجدناها ذات قعر متين من الخشب — وهنالك تذهب مجهوداتنا العظيمة أدراج الرياح ولا نلقى إلا خساراً — وأحسن والله من من كل هذا أن تحاول خلع القفل فإنها أمثل حيلة ، وأكفل وسيلة .

فبحثت عن القفل حتى إذا ألفيته قبضت عليه وجذبته فانتزعته برمته ، وسرعان ما انسابت الفتاة إلى داخل الدكانة وقالت لى بصوت خافت :

« لله درك من باسل مقدام ، ولا شلت يداك » .

لم أحفل بهذا التقريظ من الفتاة إذ ذاك لفرط ما كنت أقاسيه من الآلام والأشجان — وإن كنت أرى كلمة الإطراء الآن من ربات الدلال أجل نعم الدنيا وأطيب ثمرات الحياة .

قلت لها « أعثرت على شيء يؤكل ؟ » .

فأخذت تعدد غنائمنا ومستكشفاتنا ، قالت :

« صندوق مملوء قوارير ، فراء سميكة ، شمشية ، سلة وصفيحة » .

لا حول ولا قوة إلا بالله ، ليس فى هذا كله شيء يشبع المعدة ؟ .

ولكن الفتاة ما لبثت أن صاحت فرحة مبتهجة :

« ها هو ذا ها هو ذا » .

قلت لها « ماذا ؟ » .

قالت « خبز . . . . رغيف . . . . لا عيب فيه سوى أنه مبلول . . . التقفه » .

وطوحت بالرغيف ثم بنفسها إلى خارج الدكانة .

فالتهمت منه لقمة ملأت بها حلقى وأخذت أزدردها .

وصاحت بى الفتاة « هلم وأعطنى أنا أيضاً لقمة — ثم لا تمكثن ههنا لحظة أخرى — ولكن أين نذهب ؟ وأقبلت تتلفت حولها فى كل ناحية — وكان يعترضها فى سبيلها ويقوم فى وجهها ثلاثة سدود منيعة — من ظلمة حالكة ، ومزنة واكفة ، وريح عاصفة .

ولكنها ما لبثت أن قالت فرحة مستبشرة كمن ظفر بغنيمة !

« انظر هنالك قارب مقلوب فهلم إليه » .

قلت مردداً كلماتها « هلم إليه » .

وأسرعنا نحوه نلتهم غنيمتنا (الرغيف) التهاماً .

وكانت الريح لا تزال تعصف والأنواء تهطل والنهر يرغى ويزبد .

وسألتها — وما أدرى لماذا سألتها ؟

« ما اسمك ؟ » .

قالت بلا أدنى اكتراث ، وهى تلوك الخبز فى شدقيها وتمضغه بضوضاء عالية :

« اسمى ناتاشا » .

فنظرت إليها ملياً وأحسست قلبى يتصدع، ثم نظرت فيما أمامى من الغيم والضباب وخيل إلىأن وجه القضاء والقدر يبتسم إلىابتسامة غامضة مبهمة

والتجأنا إلى القارب فثوينا تحته و بئس الملجأ والمستظل لقد كان خلواً من أسباب الراحة والطمأنينة — رطباً ضنكا ضيق المجال يتساقط القطر من خلال قعره المتصدع وتصفر الريح فى ثقوب جدرانه المخرقة — فلبثنا صامتين نرجف ونرتعد من شدة البرد ، واستندت « ناتاشا » إلى جانب القارب وطوت جسدها طى السجل حتى صارت أشبه شىء بالكرة تطوق ركبتيها بيديها وتوسدها ذقنها وجعلت تنظر إلى النهر بعينيها النجلاوين

ساهية ذاهلة لا حراك بها ، فأوجست منها خيفة ووحشة — وأردت أن أحركها إلى الكلام ، ولكن لم أدر ماذا أقول .

وابتدأت هى فقالت :

« ما أنكد الحياة وما أخسها وأخبثها » .

ثم عاودت صمتها و بقيت صامتاً .

و بعد برهة استأنفت الكلام فقالت :

« ومهما صحنا وأعولنا و بكينا وانتحبنا لن تسمع الحياة شكوانا ، ثم تأبى إلا تمادياً فى ابتلائنا بالمحن والكوارث » .

قلت لها « ومن الذى نالك بالضر وسبب لك هذا العناء ؟ » .

قالت « تاشكا هو الذى صنع بى كل هذا » .

قلت « ومن تاشكا هذا ؟ » .

قالت « عشيقى وقد كان خبازاً » .

قلت « وهل كان يضربك كثيراً ؟ »

قالت « كثيراً جداً — كلما سكر — وما أكثر سكراته » .

ثم انبرت تحدثنى عن نفسها وعن عشيقها « تاشكا » وعن علاقاتهما المتبادلة . فقالت إنه كان خبازاً أحمر الشار بين جيد العزف على العود ، وكان يختلف كثيراً إلى دار أبويها وقد أحبته لظرفه وفكاهته ولنظافة ثيابه وحسن هندامه — لقد كان عنده حلة تساوى خمسة عشر ريالاً وحذاء برباط حريرى — من أجل هذه الأشياء أحبته ولكنه قابل حبها بالإساءة يهينها ويضربها كلما انتشى وما أكثر نشواته ويسلبها من النقود كلما جاد

به عليها سادتها (لقد كانت خادمة لدى أسرة غنية) وغيرهم ، ولكن هذا كله كان يسهل عليها وتعده يسيراً هيناً لو لم يتعده إلى الجرى وراء غيرها من الفتيات أمام عينها .

« أليست هذه أشد إهانة ؟ أولئك الفتيات لسن بأحسن منى ولا أملح فميله إليهن دونى يعد ضربا من الهزء والسخرية والاستخفاف بشأنى تعساً له ونكساً ! وتباً له من فاجر وقح ! لقد استأذنت سيدتى أول أمس فى الخروج لقضاء بعض حاجاتى ، ثم ذهبت إلى ذلك الخائن فرأيته فى إحدى الحانات مع فتاة تدعى « دنسكا » وكان قبحه الله سكران ، فأنحيت عليه سباً فأوسعنى ضرباً وركلنى برجله وأخذ بناصيتى وسحبنى على وجهى سحباً ومزق ثيابى وتركنى كما ترى نصف عارية ، فخبرنى يارعاك الله كيف كنت أذهب إلى سيدتى وأنا على هذه الحال بلا قباء ولا رداء وليس على سوى هذا القميص المهلهل ، رباه ! ماذا أصنع الآن وأيان أذهب وبماذا أعتصم ، وإلى أى شىء سيؤول أمرى ؟ »

ثم أخذت تبكى وتنتحب

وعصفت الريح كأن بها جنوناً واشتد البرد — له بأوصالنا وخز كوخز الإبر أو أطراف الأسل فاعترت الفتاة من لذعاته رعشة أى رعشة فتقبضت وتجمعت ودنت منى فالتصقت بى تبتغى الدفء حتى أحسست أنفاسها تلفح وجهى وأبصرت بريق عينيها برغم الظلام الحالك .

وقالت « تباً لكم أيها الرجال من خونة غدرة لا وفاء عندكم ولا حفاظ معكم ولا ترعون عهداً ولا تحفظون ذمة ، بودى لو مكننى الله من مقاتلكم فأوقدن ناراً حطمة ولأقذفنكم فيها جميعاً لا أستثنى منكم أحداً ، ثم لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأمزقنكم إرباً إرباً ، لا تأخذنى فيكم رأفة ولا شفقة ، ولو رأيت أحدكم يجود بنفسه لبصقت فى حلقه وقلت ابعد و بؤ بغضب من الله ومنى ، قبحاً لكم من منافقين أفاكين تظهرون ما لا تضمرون وتقولون ما لا تفعلون ، ولا تحسنون غير الرياء والمداهنة تجرون وراءنا كالكلاب تبصبصون بأذنابكم وتلعقون أطراف أقدامنا وتتشبثون بأذيالنا تستدرون عطفنا ومرحمتنا حتى إذا أذقناكم حلاوة ودادنا استحلتم ذئاباً ضارية وانقلبتم علينا سباعاً عادية ، وقذفتم بنا فى أغوار الهاوية » .

لقد أوجعتنى كلمات الفتاة على أن وخزات البرد كانت أمض لى وأوجع فتنهدت من أعماق قلبى ورجعت الحنين كتحنان الإبل العطاش فى الفلاة القفر .

وفى هذه اللحظة أحسست بذراعين صغيرتين تلتفان من حولى — إحداهما لمست عنقى والأخرى استقرت على وجهى وسمعت صوتاً رقيقاً رفيعاً متلطفاً حنوناً يسألنى .

« ماذا تشكو ؟ وماذا يؤلمك ؟ » .

فكدت أحسب أن الذى يخاطبنى إنسان آخر وليس « ناتاشا » ، تلك التى كانت منذ لحظة تكيل السب والقدح للرجال جزافاً وتتمنى لو

مكنها الله من إهلاكهم واستئصال شأفتهم جميعاً ، ولكنها هى التى كانت تطوقنى بذراعيها وتخاطبنى هذا الخطاب اللين .

واستمرت فى تلك النغمة الرقيقة قالت :

«ماذا بك؟ وماذا يضيرك ، أبك قرة أم جمد البرد أوصالك وجوارحك؟ مسكين مسكين يا طفلى الصغير ؟ تجثم منفرداً وحيداً منقبضاً فى ذات نفسك كالبومة الصغيرة ؟ لم لم تشك إلى سوء حالك وما يرعد فرائصك من البرد القارس هلم إلى وتوسد ركبتى هذه — إنها نعم الوسادة لرأسك وإن كانت يابسة خشنة » .

ثم جذبتنى إليها ووضعت رأسى على ركبتها وأمرتنى أن أمد جسدى على الصعيد وكنت من شدة الوهن والأعياء بحيث لا أستطيع مقاومة لو أردت المقاومة، ولكنى لم أردها ولم يكن بى حاجة إليها فكنت فى يدها كالخرقة البالية تطوينى وتنشرنى كيف شاءت ، ثم أقبلت تدلك جسدى بيديها وكنت على وشك أن أتجمد من لذعة القر ، وحنت على — حنو المرضعات على الفطيم تدفئنى بأنفاسها الحارة .

ولما أعادت إلى الحياة وردت الروح إلى بدنى قالت لى :

« وأنت ما الذى رمى بك المرامى وطوح بك المطاوح ، هل ابتليت بالشراب فأدمنت الكأس فطردوك من عملك فأصبحت فى الآفاق مشرداً بلا مبيت ولا مأوى ، لا بأس عليك ولا تخف وتحزن ، سأطلب لك عملا جديداً يكفلك ، ويعولك سأبغى لك شغلة ببعض المصانع وأنتحلك فأقول

إنك أخى أو ابن عمى وأشهد بكفاءتك وحسن سيرتك حتى لا ترفض ، فهون عليك وخفف مابك » .

كان لها الله لقد سرت عنى وفرجت وكفكفت من لوعتى ونهنهت من حرقتى .

يالسخرية القضاء !

نعم أى سخرية فى هذه الحادثة العجيبة ؟ ها أناذا فتى فى ريعان الشباب ممتلىء نخوة وغيرة وحماسة وكنت فى هذه الساعة أشد ما أكون حماسة ونخوة والتهابا ، وكنت مفعم الرأس بالأفكار الثورية أفكر فى مستقبل الإنسانية وأرسم الخطط لقلب نظام العالم وأدبر التدابير لهدم القديم العتيق من التقاليد العمرانية والنظم والأساليب الاجتماعية وإشعال الثورات السياسية وأقرأ الكتب الثورية والأسفار الجهنمية التى يحار فى ألغازها ويضل فى أعماق نظرياتها الغامضة واضعوها ومؤلفوها أنفسهم — فى هذه اللحظة التى كنت أحاول فيها بأقصى مجهوداتى أن أكون قوة اجتماعية حية عاملة هائلة وكان يخيل إلى أنى قد أصبت بعض النجاح وبلغت من غايتى شأوا وأنى على وشك أن أمثل دوراً تاريخياً عظيماً على مسرح الحياة السياسية والاجتماعية ، فى هذه اللحظة أرانى كالطفل الصغير فى يدى فتاة ساذجة بائسة ترعانى وتسوسنى وتدفئنى وترد إلى أنفاس الحياة بعد إذ أوشكت تفارقنى — فتاة طريدة شريدة لا محل لها فى الحياة ولا قيمة .

لقد كدت أحسب انى فى منام وهذه كلها أضغاث أحلام .

ومضت « ناتاشا » وثرثرتها تلاطفنى وتطايبنى وتداعبنى وترطب مسامعى بلين الكلام وعذبه مما لا يصدر إلا عن لسان أنثى ولا يحسنه الرجال ذوو القلوب الخشنة والأكباد الغليظة . لقد ألان طيب كلامها من جوانب فؤادى ورقق من حواشى قلبى وأضرم فى وجدانى لهيباً من الشجى والحنان فأذاب ما كان متراكما من الثلوج حول جنانى فانهمر من عينى طوفانا من غزير المدامع يكتسح فى تياره شيئاً كثيراً مما كان قد تلبد وارتكم حول قلبى من الأقذاء والأكدار والأدران والأدناس والشرور والخبائث ومن الأوجاع والأحزان ؟ والآلام والأشجان .

حيا الإله « ناتاشا » لقد أنقذت قلبى من الجحيم وأوردته حياض الكوثر !

وقالت لى : « حسبك ! حسبك ! جفف دمعتك ، وكفكف عبرتك . فيم هذا البكاء كله اتق الله فى نفسك سيجعل الله بعد عسر يسراً وبعد ضيق فرجا ، وسيهيىء لك رشداً وخيراً ويفيض عليك من لدنه رضوانا وبراً . »

ثم حنت على تقبلنى ، وكم صبت على من لثمات حارة صادقة تفيض إخلاصاً وحناناً وعطفاً ، وكلها بلا أجر ولا ثمن !

تلك أول لثمات أهديت إلى من أنثى ، ولقد كانت خير لثمات وأصدقها ولكم نلت بعدها من لثمات كلفتنى أبهظ الأثمان ثم لم أجن منها ثمرة ولم ألق خيراً .

قالت « هون عليك ياصبي ، ما أكثر ضجرك وما أقل حولك ؟ وما أشد خورك تحت أعباء الحياة ، ولكنك صغير ، ولسوف تتعلم الصبر والجلد متى صرت رجلا ، خفف ما بك واعتمد على فإنى باحثة لك عن عمل ينسيك ما فقدته » .

فروحت كلماتها ، وبقينا مكاننا إلى الفجر .

ولما حدر الصباح نقابه تودعنا وانصرفنا كل فى سبيله .

ولم نلتق بعد ، على أنى لم آل بحثاً وتنقيباً عن الفتاة حولا كاملا .

فان كانت قد انتقلت إلى الدار الباقية فرحمها الله رحمة واسعة ، وإن تك لاتزال على قيد الحياة فلا زلت أقول يرحمها الله رحمة واسعة .

الحانوتى

للقصصى الروسى اسكندر بوشكين

انتقل الحانوتى « ادريان بوركورف » من منزله القديم (كان منزلاً وحانوتاً فى آن واحد) إلى دار جديدة ولما فرغ من وضع آخر أمتعته على آخر مركبة ، أغلق باب حانوته وألصق عليه إعلاناً للإيجار أو المبيع ، وامتطى قدميه إلى داره الجديدة ، ولما دنا من تلك الدار المستملحة الأنيقة التى ما برحت منذ أعوام تستهوى قلبه وتأخذ بمجامع لبه ، حتى اشتراها أخيراً بمبلغ جسيم ، أدهشه من نفسه أنه لم يطرب لرؤية تلك الدار المحبوبة ولا رقص قلبه لحسن منظرها ، ولما ولج بابها وألفى الأثاث والأمتعة مبعثرة فى حجراتها ، تلهف شغفاً وذاب شوقاً إلى داره البالية القديمة التى قضى فيها معظم حياته ، ونفث غمه وكمده على أرؤس بناته ، ينهرهن ويزجرهن على الإبطاء فى ترتيب الدار وتنظيمها .

وأخيراً ساد النظام فى أنحاء الدار ، ففرشت غرفة السمر بالمائدة ، والأرائك وخزانة الآنية والصحاف وبالتماثيل والصور الدينية ، وجعل فى أحد أركانها فراش بناته ، وفى المطبخ وغرفة الاستقبال وضعت أدوات مهنة الحانوتى وسلعه وبضاعته : نعوش وتوابيت ، من كل مقاس وشكل

ولون ، وخزائن فيها شارات الحداد و أزياؤه ، من سود القلانس والبرانس ، والأوشحة والمناطق ، خلاف عدد وافر من الشموع والمشاعل .

وعلى الباب علق رمز المهنة : لوحة تمثل « كوبيد » رسول الحب وفى يده مشعل منكس ، ومن تحت ذلك : « هنا يباع جميع أصناف النعوش الملونة و « السادة » — نعوش للإيجار — ترميم النعوش القديمة » .

وأوت البنات إلى مخدعهن ، وجال الحانوتى « أدريان » جولة فى منزله الجديد ليعاين نظامه وترتيبه ، ثم جلس إلى النافذة وأمر الخادمة بإحضار الشاى .

قد يعرف القارىء المطلع أن المؤلفين الجليلين « وليم شكسبير » و « السير والترسكوت » آثرا أن يجعلا الحانوتية وحفار القبور فى روايتهما الخالدة ، من أهل الجذل والمراح ، والفكاهة والمزاح ، إمتاعا للقارىء بما يترتب على ذلك من عجيب المناقضة بين أخلاق الحانوتى ومهنته ، ولكنا مراعاة للحقيقة والواقع ، لا نستطيع مجاراة « شكسبير » و « سكوت » فى تلك الطريقة الفنية ومن ثم لا يسعنا سوى الاعتراف بأن أخلاق حانوتى روايتنا كانت على تمام الائتلاف مع مهنته الحزينة الأسيفة ، لقد كان « أدريان » فى معظم حالاته وأوقاته مكتئباً مطرقاً واجماً ، قلما يفتح فمه إلا ليوبخ بناته على الكسل والإطلال من النوافذ على السابلة ، أو ليطلب أبهظ الأثمان على بضاعته ممن يحوجهم سوء الحظ — وأحياناً حسن الحظ — إلى مشتراها .

وكذلك كان « أدريان » جالساً إلى النافذة يشرب الشاى ، وإنه لمنغمس إلى أم رأسه فى لجة من الهموم والبلابل ، لقد كان يفكر فى ذلك المطر الهاطل الذى منذ أسبوع انبرى ينهمر ويتدفق على جنازة كان هو القائم بشأنها ، لقد جعل الوابل المدرار ينصب من أمثال أفواه القرب على عدته وبضاعته : — على البرانس والقلانس وعلى الأوشحة والمناطق حتى أتلف نسجها ومحا ألوانها ، وشوش قوالب القلانس وأفسد أشكالها ، ولم يغب عن صاحبنا « أدريان » أن ترميم هذه السلع والبضائع يحتاج إلى باهظ النفقات ، وكان يؤمل تعويض هذه الخسارة من وفاة الشيخة العجوز « تروكينا » زوجة التاجر الغنى ، تلك التى مضى عليها أكثر من عام وهى من الموت على شفا جرف ، ولكنها تأبى أن تموت ، غير أنه تذكر أن العجوز « تروكينا » تعانى سكرة الموت فى قرية بعيدة ، وأن أهلها — لسوء الحظ — ربما لجأوا إلى حانوتى قريب من مقرهم ، رغماً من وعدهم إياه أنهم لن يلجأوا إلى غيره .

وبينا هو فى هذه الهواجس ، إذ قرع الباب ، فقال :

« من الطارق ؟ » .

وما لبث أن دخل عليه رجل متهلل الوجه براق الأسارير ، فتقدم نحو الحانوتى ، وقال :

« معذرة أيها الجار الكريم ، معذرة عن تطفلى عليك ؛ وإقلاقى راحتك . . . . ولكنى أردت أن نتعارف إذ أصبحت جاراً لنا ، إنى رجل حذاء أدعى « جوتليت شالتز ، ألمانى الجنس ، وارى قبال دارك ، وغداً

أصنع وليمة احتفالاً بذكرى يوم زواجى ، وقد جئت أدعوك إليها أنت و بناتك الثلاث .

فقبل الحانوتى الدعوة بمنتهى السرور والارتياح ، ثم أجلس ضيفه الحذاء ، وسقاه الشاى ، وسرعان ما تسالبا أهداب الحديث ، وقال الحانوتى « أدريان » :

« كيف حال السوق عندكم ؟ » .

قال « شالتز » :

« السوق عندنا كاسدة والحال سيئة ، لا جرم أن بضاعتى أقل رواجاً من بضاعتك ، فالأحياء قد يستغنون عن الأحذية فيسيرون حفاة ، ولكن الأموات لا يستغنون ألبتة عن النعوش ، ولا يستطيع الميت أن يلج باب الآخرة عارياً فلا ميت يستطيع الذهاب إلى قبره بلا نعش » .

« قال ادريان »

« ولكنك إذا جاءك حى مفلس يستجديك نعلا من نعالك ، فلست مجبراً أن تنعله ، أما أنا فإن لجأ إلى ميت شحاذ كان حتما على أن أهبه نعشاً ، فالحى قد يضرب فى الأرض حافياً » .

على هذا النمط دار الحديث بين الرجلين برهة من الزمن ، وأخيراً قام الحذاء فاستأذن فى الانصراف ، بعد أن جدد دعوته .

فى ظهر اليوم التالى انتقل الحانوتى و بناته الثلاث من دارهم الجديدة إلى دار جارهم ، ولست بواقف هنا لأصف للقراء هيئة الحانوتى وهندامه ولا قفطانه الأخضر الروسى ولا زينة البنات وحليتهن ، كما يفعل الروائيون

العصريون ، ولكنى لا أكتم القارىء أن البنات الثلاث لم يفتهن أن يلبسن لهذه الوليمة البهيجة معاطفهن الصفراء وأحذيتهن الحمراء التى كن يلبسنها دائماً فى المناحات والمآتم .

كان منزل الحذاء غاصاً بالضيوف ، معظمهم من الصناع الألمان ، وكان هنالك رجل روسى ساعاتى يدعى « يوركو » فأقبل الحانوتى على ذلك الروسى ، وسرعان ما تعارفا وتآلفا ، ولما جلس الضيوف إلى الخوان ، جلس الصديقان الجديدان جنباً لجنب ، وقام الحذاء وزوجته وابنتهما — فتاة فى السابعة عشرة من عمرها — بخدمة الضيوف على المائدة ، وفاضت ينابيع الشراب ، وانقض الساعاتى والحانوتى على الألوان ، يتباريان ، كفرسى رهان ، وعلا صخب الحديث وحمى وطيس الحوار والجدال ثم إن صاحب الدار فض زجاجة وصاح بالروسية « على صحة زوجتى لويزا ! »

وهدرت الأباريق بالصهباء ، وفارت الشمبانيا ، وأقبل رب الدار على محيا زوجته فقبله ، وشرب الضيوف على ذلك الوجه الزاهر الناضر .

وصاح رب البيت وفض زجاجة أخرى :

«على صحة ضيوفى الكرام ! » .

وشكره الضيوف بالتهام الأقداح .

وتلاحقت الكؤوس وشربوا على صحة كل مخلوق ، شربوا على صحة موسكو ، وعشرين بلدة ألمانية ، ثم على صحة جميع الطوائف والفرق والصناعات والحرف مجتمعة ومتفرقة ، إجمالا وتفصيلا ، شربوا على صحة « الاسطوات » والمقدمين والمعلمين ، والصناع والعمال ، وسكر الحانوتى

« أدريان » ولعبت برأسه المدام ، فتناول كأساً واقترح أن تحتسى الكؤوس على صحته ، فاحتسوها ، وهنا قام رجل ضخم جبار فصاح :

« على صحة من نشتغل من أجلهم ، على صحة زبائننا الكرام ! » .

فسر الجميع بذلك الاقتراح وارتفع منهم الضحك والضوضاء وجعلوا يشربون ويصيحون « على صحة زبائننا الكرام » وفى وسط هذه الضجة ، نهض الساعاتى « يوركو » فالتفت إلى صديقه الحانوتى وقال له :

« هلم يا صاحبى ، واشرب على صحة أمواتك على صحة جثثك المقبورة ! »

فتضاحك الجماعة ، ولكن الحانوتى عد هذه الكلمة مسبة وإهانة ، فعبس وأطرق ، ولم يفطن إلى غضبه أحد من الحاضرين ، فظلوا على حالهم من الأنس والسمر واللهو والفكاهة .

ودق جرس الغروب ، وتفرق الضيوف كل فى وجهته ، وعاد الحانوتى إلى منزله سكران غضبان .

فصاح قائلا :

« عجباً عجباً ! لماذا يحقرون مهنتى ، ويبخسونها قدرها ؟ أليس لمهنتى شرف سائر المهن ؟ أم يحسبون أن الحانوتى أخو الجلاّد وصنوه ! لماذا جعل هؤلاء الكفرة الفجرة يضحكون منى ومن مهنتى ؟ أظنوا الحانوتى سخرة وأضحوكة ؟ لقد هممت والله أن أدعوهم إلى منزلى الجديد ، وأن أصنع لهم وليمة ، فأما وقد أساءوا إلىّ واضطهدونى فلن أصنع لهم شيئاً ، وبدلا من دعوتى إياهم ، لأدعون زبائنى الذين من أجلهم أشتغل ، أجل لأدعون الأموات ، لأدعون جثثى المقبورة ! » .

فقالت له خادمته وكانت ، فى تلك اللحظة ، بأزائه !

« ماذا أصابك يا أبتاه ؟ وما هذا الهراء والهذيان ؟ استغفر الله وصلّ للعذراء ، ماذا تقول ؟ تدعو الأموات إلى بيتك الجديد ؟ ما هذا الحمق والسخف ؟ »

فاستمر « أدريان » على سالف قوله .

« أجل والله ، لأدعون الموتى ، وليكونن ذلك غداً ، انصتوا إلىّ أيها الأموات ! تفضلوا على يا زبائنى الكرام ويا أولياء نعمتى بزيارتى وتناول العشاء على مائدتى فى مساء الغد ، سأطعمكم مما رزقنى الله طعاماً هنيئاً سائغاً »

وعلى أثر ذلك استلقى الحانوتى على فراشه ، وما هى إلا لحظة حتى كان يغط فى نومه .

وقبيل الفجر أيقظت الخادمة سيدها « أدريان » وذلك أن رسولا جاء من أسرة الأرملة « تروكينا » وقد كانت توفيت فى خلال تلك الليلة ، ليبلغ النبأ العظيم إلى مسامع الحانوتى فأتحفه الحانوتى بنصف ريال جزاء له على هذه البشرى ، ثم ارتدى ثيابه عجلا ، وامتطى مركبة إلى قرية الفقيدة

أمضى الحانوتى ذلك اليوم بأكمله غادياً رائحاً بين البلدة والقرية فى إعداد معدات الجنازة ، ولما فرغ من واجباته ، انقلب عائداً إلى داره ، فلما دنا منها خيل اليه أنه أبصر إنساناً فتح مغلاق بابها ثم اختفى داخلها .

فقال فى نفسه :

« ماذا أرى ؟ ومن عسى يكون ذلك الإنسان الذى يحتاجنى الآن ؟ ألص جاء يسرق دارى ؟ أم لبناتى عشاق يختلسون اليهن الزيارة فى مثل

هذه الساعة ، ومهما يكن من الأمر ، إنى لا أرى فيه خيراً »

و بينا هو يفكر فى الاستغاثة بأحد الجيران ، إذ أبصر شخصاً آخر يفتح الباب ، وفيما هو يهم بالدخول ، أبصر صاحبنا الحانوتى رب البيت ، فوقف ونزع بالسلاح قلنسوته ، ونظر الحانوتى فى وجه الطارئ ، وكأن ذلك الوجه قد مر على ناظره من قبل ولكنه لم يتذكره بالضبط .

قال ادريان بصوت مختنق وقد أخذ الرعب يكظمه :

« لقد جئت تشرفنى بزيارتك ، مرحباً بك ، تقدم أمامى »

فأجابه الطارق بصوت أجوف منخوب :

« اسقط الكلفة فيما بيننا ، يا أبتاه ، تقدم أنت أمامى ، خليق برب الدار أن يهدى السبيل ضيوفه ؟ »

صعد « ادريان » السلم ، يتبعه الآخر ، وخيل إلى « ادريان » أنه يسمع حركة أناس يجوسون خلال حجراته .

فقال فى نفسه :

« ويل لى ! ماذا عسى يكون ذلك ؟ »

ولما دخل غرفته ، أبصر بها ما راعه وهاله حتى ارعدت فرائصه وخارت قواه ، ولم تستطع حمله ساقاه .

كانت الحجرة مملوءة بأشباح الموتى ، بالجثث التى كان حملها ، فيما سلف ، إلى المدافن ، وغيبها فى ألحادها .

كان القمر باهراً ، وقد هبطت أشعته اللؤلؤية على تلك الجثث فأضاءت

وجوهها الصفراء الزرقاء ، وشفاهها المتقلصة وأعينها الزجاجية ، وأجفانها المرخاة ، وأنوفها البارزة .

وعرف « ادريان » فى هذه الأشباح ، أولئك الذين كان دفنهم بيديه — وفى الطارق الذى كان يغدو على عقبه ، ذلك الميت الذى هطلت السماء على جنازته كما حدثنا آنفاً ، وأحدق الجميع رجالا ونساء بصاحبنا وصاحبهم « ادريان » وأكثروا عليه من التحيات والسلامات — ماعدا رجلا فقيراً مسكيناً ، كان قد دفن مجاناً ، فمنعه الخجل فى تلك اللحظة أن يتقدم فانتبذ زاوية من الحجرة ، تستر بها أطماره البالية ، أما سائر القوم فكانوا فى آنق الحلل وأروعها ، فالنساء فى الخز المزركش والديباج الموشى ، والضباط فى الملابس الرسمية . على أن لحاهم كانت غير محلوقة ، والتجار والصناع فى قفاطين الأعياد والمواسم .

ثم انبرى من بين تلك الجماعة أحسنهم هيئة وأجهرهم صوتاً وأطلقهم لساناً ، وكان مدرساً فقال :

« لقد بعثنا جميعاً تلبية لندائك يا مستر « ادريان » ولم يتخلف منا عن إجابة الدعوة أولئك الذين قد أكل البلى أجسادهم فلم يبق منها إلا عظاماً نخرة لا تستطيع تماسكا ولا نهوضاً — بل لقد رأيت من بين هذه واحداً لم يطق صبراً عن لقائك ، فجعل يئن تشوقاً إليك وحنيناً . . . . . » .

فى تلك اللحظة اندفع الباب ، ودخل هيكل عظمى دقيق ، فتقدم نحو « ادريان » وابتسم وجهه المعروق تودداً وحناناً إلى الحانوتى ، وكانت تتدلى من أعطافه خرق بالية بين حمراء وخضراء ، كأنها تتدلى من عصا

مشذبة ، ولعظام قدمه فى نعله صرير وصليل كصوت « الشخشيخة »

نظر هذا الهيكل العظمى إلى الحانوتى وقال :

« أراك لا تعرفنى يا مستر « ادريان » ألا تذكر الجندى « بطرس بتروفتش » ذلك الذى بعته أول نعش من صنع يديك فى عام ١٧٩٩ ، وقد جعلته من خشب الزان ، وكان الاتفاق على خشب السنديان ، ألا تذكر ذلك ؟ » .

ومد الهيكل العظمى ذراعيه العاريتين المعروقتين نحو « ادريان » ولكن الحانوتى استجمع كل قواه ، وصرخ صرخة منكرة ثم دفع بجميع يديه فى صدر الهيكل فتناثرت عظامه على البساط بددا .

عند ذلك علت ضجة استياء من الجثث ، احتجاجاً على ما أصاب زميلهم ، فأوسعوا الحانوتى وعيداً وتهديداً ، وأرسلوا عليه من صيحات مقتهم وغضبهم ، ما أصم أذنيه ، حتى فقد صوابه وخر مغشياً عليه فوق عظام الجندى المبعثرة .

طلعت الشمس على الحانوتى نائماً بفراشه وارتفع سرادقها ، ولما أينع النهار ، وعلا رونق الضحى ، تقلب « ادريان » على مضجعه وتمطى ، ثم فتح عينيه ، فأبصر الخادمة تجهز الشاى .

ومرت على ذهنه ذكرى يومه المنصرم ، فارتعدت لها فرائصه — لقد تذكر الأرملة «تروكينا» ووفاتها ، وتذكر وفد الأموات ، وما كان منهم ، وتذكر خطاب الجندى « بتروفتش » وسقوطه على أرض الغرفة عظاماً مبعثرة ، وظل صامتاً ، ينتظر من الخادمة أن تبدأ الحديث فتسرد عليه تلك الحوادث .

تقدمت إليه الخادمة بردائه وسألته قائلة :

« كيف كانت ليلتك يا أبتاه ؟ لقد جاء جارنا الخياط ليدعوك إلى حضور حفلة سيقيمها غداً تذكاراً ليوم ميلاده .

ولكنى كرهت أن أزعجك من منامك لتافهة كهذه » .

قال ادريان :

« ألم يجئنا رسول من أسرة الأرملة « تروكينا » عليها رحمة الله ؟ »

« عليها رحمة الله ! ومن قال إن المرأة قد ماتت ؟ »

« لك الويل من غبية حمقاء ! ألم تساعدينى أنت نفسك على تجهيز لوازم الجنازة أمس ؟ » .

« أ أصابك جنون يا أبتاه أم لا تزال فى غمرة من سكرة الأمس ؟

أية جنازة كانت أمس ، وأية معدات أعددناها لتشييع الجنازات ، ومتى ساعدتك أنا فى أى عمل من هذا القبيل ؟ تقول إن ذلك كله وقع بالأمس ولا أعرف شيئاً جرى أمس إلا ذهابك إلى مأدبة جارنا الحذاء ورجوعك منها تتخبط سكراً ، لا تكاد تنصب قامتك ثم تهالكت على الفراش حيث ما زلت تشخر حتى الساعة » .

قال الحانوتى وقد أفرخ روعه :

« أحقاً لم يكن سوى ذلك ؟ » .

« أى ورب » .

« بشرك الله بالخير ، جهزى الشاى ، ونادى البنات » .

النزهـــة

للقصصى الإسرائيلى الروسى س . ليبين

إن تلق يوما « صموئيل الجزمجى » فسله — على سبيل المزاح — هل يجب ان يصحبك إلى بعض البساتين للنزهة ، فما هو إلا أن يسمع منك ذلك حتى يثور عليك كالوحش الضارى ، كما لو كنت قد سألته أن يذهب معك إلى المشنقة ، وسرّ ذلك أنه كان قد ذهب مرة مع زوجته « سارة » للنزهة ، وليذكرن تلك الساعة المشؤومة إلى يوم يقبر .

كان ذلك يوم أحد فى أخريات أغسطس (بمدينة نيويورك وكان قد هاجر إليها باسرته من روسيا ، منذ بضعة أعوام) .

فى مساء يوم الجمعـة بعد الفراغ من العمل عاد صموئيل إلى منزله فقال لامرأته :

« عزيزتى سارة ! »

فأجابته زوجته :

« خيراً »

وكأنما خشى صموئيل أن يباغتها بمطلبه صراحة فتلطف ما شاء ، فقال لها :

« عزيزتى ، هل لك أن تبلغينى أمنية مازلت أشتهيها ؟ »

« أية أمنية ؟ تريد أن تذهب إلى الحمامات غداً ؟ »

« وأية لذة فى ذلك ؟ » . فقالت :

« تريد كوبة شربات عقب الغداء ؟ » .

« كلا ولا هذه أيضاً » .

« زجاجة شربات برمتها ؟ »

فهز رأسه إنكاراً .

قالت سارة وتعجبت .

« ليت شعرى ، ماذا عسى تكون تلك الأمنية ؟ تريد زجاجة بيرة ؟ »

« وماذا أصنع بالبيرة ؟ » .

« تريد أن تنام على سقف الدار ؟ » .

« كلا » .

« تريد أن تشترى زجاجة أخرى من حامض الكربوليك لتطرد البراغيث والبعوض ؟ » .

« فكرة وجيهة ورب إسرائيل ، ولكنها خلاف ما أطلب الآن » .

« ويحك ، ماذا تبغى ؟ تريد القمر وحفنة من النجوم ؟ اقذف بها من فمك وأرحنا ، لا أذاقك الله روحا ولا راحة ! » .

« عزيزتى سارة ، قد تعلمين أننا تابعون لجمعية ، والجمعية هى التى اقترحت هذه النزهة »

« على الجمعية وعلى مؤسسيها ورؤسائها ألف لعنة ! ماذا تريد منا الجمعية

عليها العفاء؟ أنسيت أنهم أخذوا منا منذ أيام ريالا لم نفق للآن من مصيبته؟ أيريدون ريالا آخر ؟ » .

« ولا هذا ، خمنى مرة أخرى » .

« فه بها لا أبعد الله غيرك ؟ أتحسب أنه لا عمل لى سوى التخمين عن وساوسك السخيفة ، ألفظها فض الله فاك ؟ » .

« سارة ، يا قرة العين وقوت الفؤاد إنى . . . إنى . . . أريـ . . . أريد الخروج للنزهة » .

فصرخت سارة :

« الخروج للنزهة ، النزهة ، هل ظفرنا بجميع حاجاتنا من العيش ، فلم يبق أما منا سوى النزهة ؟ » .

« على رسلك سارة ، أما ترين كيف نكد ونكدح طول العام ؟ أما ترينا لا نعقب من طول نصبنا وعنائنا ، وادئاب سعينا وجهدنا إلا الهم والتنغيص والكدر ؟ أتسمين هذه عيشة ؟ لبئست تلك من عيشة ، الموت أطيب منها وأروح ، ألا ترفيهة من فرط هذا العناء ، ألا تنفيسة من أزمة هذا الكرب والبلاء ؟ ألا فرجة يسيرة من استمرار هذا العسر والضيق ؟ ألا تعريسة ، بعد طول الإدلاج ، على جانب الطريق ؟ خبرينى متى نظفر من طيبات هذه الحياة بجلسة ، ومتى تمس شفاهنا من ساقى النعيم كأسه ؟ أحتم على الإنسان أن يدوم عليه النحس سرمداً ، ويظل فى البؤس والشقاء أبداً ؟ .

أمن ضيق مثوى المرء فى بطن أمه إلى ضيق مثواه من القبر يسلم
ولم يلق بين الضيق والضيق فرجة أبى ذاك إن الله بالعبد أرحم

قالت الزوجة وقد أثرت فيها وألانت من كبدها شكوى الرجل :

« حسبك وأفصح لى عن رغبتك ، ماذا تريد ؟ » .

« هذا الصيف يا عزيزتى يشمر للرحيل أذياله ، وما فزنا منه بمتعة ، حنانيك ، هذه أرض الله قد أخذت زيتها من خمائل دبجتها أيدى الندى ، قد رقت حواشيها ، وتأنق واشيها ، وتنافجت بنوافج المسك أنوارها ، وتعارضت بغرائب النطق أطيارها ، على أشجار كأن الحور أعارتها قدودها ، وحلتها عقودها ، ونحن ههنا لم تحظ أعيننا بورقة ناضرة ، ولا آذاننا بلحن هادلة ولا هادرة ، وقد قنعنا من مباهج الطبيعة بالسجن بين هذه الجدران المسودة نكد فى الظلمات ونعرق ! » .

قالت سارة وتنهدت :

« صدقت » .

واسترسل صموئيل :

« اجعلى لنا ، يا رعاك الله ، مخرجا من هذا الحبس المطبق ، انطلقى بنا فى فضاء الله مرة فى العمر ، دعى الأطفال ينتعشون بنفس من الهواء النقى ، اخرجى بنا من الظلمات إلى النور ولو لبضع دقائق ! » .

« وماذا يكلفنا ذلك من النفقة ؟ » .

« تذكرة الدخول فى الحديقة للأسرة برمتها : أنا وأنت ، وأولادنا

« يوسيلى » و « ريفيلى » و « هناهيلى » و « بيريلى » بشلن ، ولا ندفع أجرة ركوب عن « ريزيلى » و « دولزيلى » . . . وعنى وعنك ندفع فى الذهاب والاياب نصف شلن ، ثم شلن آخر ثمن مرطبات نحملها معنا : أنا ناسة (نشتريها معطوبة ، ببنسين على الأكثر) وبضع موزات ، وشقة بطيخ ، وزجاجة لبن للأولاد وأربعة أرغفة ، . . هذه لا تكلفنا أكثر من شلن ، . . . شلن ، ونصف شلن ، وشلن : الجملة شلنان ونصف ، لا أقل ولا أكثر ! » .

فصفقت سارة بيديها يأسا وصاحت :

« شلنان ونصف ! عجباً ! هذا مبلغ نعيش عليه يومين كاملين ! ولا تكسبه أنت إلا بعرق الجبين يوما كاملا ! وهو ثمن « شبشب » لى وثلاثة « قباقيب » للأولاد ، وثمن « بنطلون » لك يا أبله ، شلنان ونصف ! »

قال صموئيل منهزما :

« ما هذا الصياح والصراخ ! شلنان ونصف لن تفقرنا ولن تغنينا ، إن نظام عيشتنا لن يبدده شلنان ونصف ، سنظل بعد إنفاقها على ما نحن عليه ، أترينا سنموت جوعا ؟ كلا ! دعينا نعش عيشة الآدميين ولو يوماً واحداً فى العام ! تساهلى يا سارة ، دعينا نذهب ! سنرى أشكالا شتى من الناس فنراقب حركاتهم وننظر كيف يلهون ويلعبون وينعمون ويستمتعون ، ستجدين لذة كبرى وغنيمة عظمى فى اطلاعك على الدنيا وأهلها ، وذهابك إلى حيث الحياة يعب عبابها ويزخر تيارها ، اصغى إلى ياسارة ، ماذا رأيت

من مظاهر الحياة ومناظر الدنيا منذ قدمنا أميركا ؟ أرأيت جسر « بروكلين ؟ أم البستان الأوسط ؟ أم حمامات البارون ؟ »

قالت سارة :

« كلا لم أر هذه ولا أحب أن أراها ، وما كان لربة أسرة مثلى أن تبدد أوقاتها المملوءة بالواجبات والفرائض بالجرى فى الشوارع وراء الترهات والسفاسف ، وحسبى أن أعرف الطريق من ههنا إلى السوق »

« لا ينبغى لك أن تحتجى بأمثال هذه الحجج الواهية ، وعار عليك أن تقضى حياتك فى مكان ، تظلين من مذاهبه وطرقاته ، كالدويبة العمياء ، على جهالة ، دعينا نمض ، فلن يضيرك والله ، وعند الصباح يحمد القوم السرى » .

قالت زوجته وألا نت من عريكتها ، وتبسمت

« أنت أدرى بما هنالك ، فلنذهب ، إن لم يكن من الذهاب من بد » .

وكذلك تقرر فيما بين الزوج والزوجة اشتراكهما وأولادهما فى نزهة الجمعية اليوم التالى .

فى صباح الأحد استيقظوا مبكرين جميعاً ، ولا تسل عما كان ثمة من هرج ومرج ومن صخب وضوضاء إذ يسوق الأبوان الأطفال إلى الحمام ثم ينحيان على أجسادهم العارية دلكا وتصبينا وحكا باللليفة و بالحجر حتى يدميا أبشارهم ، والأطفال تصيح وتصرخ ، وأركان الدار من هول صرخاتهم تكاد تنهار فتتقوض ، و انفرد الأب بقدمى غلامه الأصغر « توسيلى » ولما

كان هذا الشيطان لا يزال حافياً ، ذهبت مجهودات الوالد أدراج الرياح فلم تزدد قدماً الصبى على طول الحك إلا قذارة ، فاضطر الوالد إلى نعقهما فى الماء كما ينقع البلح إلا بريمى ، والطفل من سخونة الماء يصيح ويعول وكذلك انتصف النهار قبل أن يتهيأ الأولاد للخروج ، ثم وجهت سارة عنايتها إلى زوجها ، فأقبلت تنقى ثيابه من البقع والأدران بالكحول والبنزين وتركب هنا زراً ، وترقع هنالك خرقا ، ثم فرغت إلى نفسها فارتدت حلة عرسها العتيقة الطراز ، التى أكل عليها الدهر وشرب ، وفى الساعة الثانية بعد الظهر انطلقوا من الدار فاستقروا بالمركبة .

وسألت سارة زوجها قائلة :

« هل نسينا شيئاً ؟ »

فاقبل صموئيل يعد ما كان معهما من أصناف الطعام ويعد أيضاً الأولاد، ثم قال :

« كلا ، لم ننس شيئاً يا سارة » .

ونامت الطفلة الصغيرة دولتزيل وقعد سائر الأطفال فى مجالسهم هادئين ، ونعست سارة ايضاً ، لفرط ما أوهنتها تلك المتاعب ونهكت قواها ، وظلوا بخير برهة من الزمن ، ثم انتفضت سارة من سنتها ، وقالت :

« أن برأسى لصداعاً ، وأكبرظنى أن الهواء الطلق قد قلب كيانى »

فأجاب زوجها :

« وبى من الصداع مثل ما بك ، وما أرى لذاك من علة سوى الهواء الطلق ، لقد أخذنا على غرة » .

قالت سارة :

« إنه لكما تقول ، وإنى لأخشاه على أطفالنا . »

وما كادت تفوه بذلك حتى استيقظت الطفلة النائمة تئن وتعول ، وعليها بوادر المرض ، وشاهد أخوها « يوسيلى » بكاءها ، فبكى وأعول ، فزجرته أمه تسبه وتلعنه ، فراع ذلك سائر الأطفال فصاحوا وأعولوا جماعة ، .... وصوب سواق المركبة إلى صموئيل نظرة ملؤها الغيظ والحنق ، أرعدته فزعاً حتى أسقط سلة الزاد من يده على أرض المركبة ، ولما كان يعلم ما لا بد أن ينجم عن ذلك من الخسارة الفادحة ، والنكبة القادحة أصابه من الجزع والهلع ما أذهب عقله وكاد يذهب بنفسه ، فظل مكانه كالمغشى عليه ، وكانت سارة تسكن فى أطفالها ثائرة البكاء . فلم تملك أن تحاكم زوجها على ما أتى ، ولكن لهيب الغضب فى عينها كان بأنكى العذاب موعداً و بأقسى العقاب مهدداً ، وما هو إلا أن أسلمتهم المركبة إلى ظهر الأرض حتى صاحت سارة :

«وهكذا لا تقر له عين ولا يهدأ له بال حتى يخرج للنزهة ! النزهة النزهة ! أنت يا سيدى عامل بسيط ، وليس من حق العمال أن ينطلقوا فى الشوارع والأحياء يرتعون و يلعبون كأولاد الذوات والأعيان ! »

وكان صموئيل قد سئم ومل ، وجعل يلعن فى سره الساعة التى اشتهى

فيها النزهة ، والساعة التى أصر فيها على النزهة ، فأطرق صامتاً ، وفى قلبه قرحة ، وعلى كبده حرقة ،

ثم احتمل الطفل « يوسيلى » على ذراعه اليمنى و « ريزيلى » على اليسرى ، واحتمل أيضاً السلة المملوءة بالأطعمة المحطمة ، وجعل يقول لطفليه « مهلا ! مهلا ! لا تنوحا ولا تبكيا ، ستنالا عما قليل « بغيتكما من الخبز والسكر ، صه ! اسكتا ، وأسكتا » واستمر على هذا المنوال ، واستمر الطفلان على منوالهما من الصياح .

واحتملت سارة الطفلة « دولتزيل » وجعلت تهزها وترقصها ، وعن يمينها ويسارها الصبيان « بيريلى » و « وهاناهيلى » يركضان ،

وتنهدت سارة من أعماق قلبها وقالت :

« لقد قصر أجلى ، قصر الله أجله » .

و بعد برهة دخلا بستان النزهة ،

وقال صموئيل :

« لنبحث الآن عن شجرة نستريح تحت ظلها ، هلم ياسارة » .

قالت سارة :

« لقد خارت قواى ، فلا أستطيع أن أتقدم خطوة ثم سقطت لدى البوابة كالحجر الأصم ، وأراد زوجها أن يتكلم ، ولكنها ألجمته نظرة جهنمية فخر راكعاً تحت قدميها ، مقطوع اللسان ، ثم إن سارة أبرزت ثديها للطفلة « دولتزيلى » فألقمتها حلمته ، وأقبل سائر الأطفال على بساط العشب يتمرغون ويتدحرجون ، وسرى عن صموئيل بعض همه .

و بالبستان الغادات والصبيات فى الحلل القشيبة رافلات ، ومن نشوة الدل مائسات ، وفى ظلال الدوح زمر تفترش العشب وفئات من حول الدنان والأباريق جالسات ، وفيها كل حوراء مفتان ، لفاء مبدان ، تخالها وعلى ثغرها الكأس ، قمراً يقبل عارض الشمس .

إذا ما التقى السكران سكر شبابها وأكوابها كادت من اللين تعقد

وثمة بناحية من البستان فتى أغر أبلج ، يضحك عن الأقحوان ، ويتنفس عن الريحان ، قد اختلس قامة الغصن ، وتوشح مطارف الحسن ،

غلام رماه الله بالحسن يافعا له سيمياء لا تشق على البصر

كأن الثريا علقت فى جبينه وفى أنفه الشعرى وفى جيده القمر

تكتنفه طائفة من الفتيات ، فرحات به معجبات ، هائمات فى حسنه والهات .

و بناحية أخرى من البستان غادة قدأفرط جمالها ، وأقمر هلالها ، وانتقبت بالبدر ، واكتحلت بالسحر .

يتلقاك فى الغلائل منها وجه شمس وجسم دمية عاج

ذات جيد يزهى على كل عقد وجبين يزهى على كل تاج

طلعت فى لبوسها وحلاها كمهاة فى روضة مبهاج

قد حفها نفر من الفتيان ، يروون فى منهل حسنها صاديات المقل ، ويجرون فى لجة عشقها سابحات الأمل .

ومن أعماق الخميلة ينبعث لحن حزين ، من عامل مسكين ، وعلى كثب

من سارة وزوجها رجل فى أطمار ، يحرك من طنبوره الأوتار ، وأقبلت سارة تجيل طرفها فى أرجاء المكان ، وقد خفت عن صدرها وطأة الأحزان وتراخت ربقة الأشجان ، على أن قلبها لم يزل مكلوماً جريحاً ، ولكنها لم تكن كلوم الغيظ ولا جراح الحنق ، وانما الذكرى كانت تدمى فؤادها ، وتنضج كبدها ، لقد أقبلت تتذكر من أيامها الحاضر والغابر ، وتستعرض من حياتها المستقبل والدابر ، فإذا العيش كله علقم ومرارة ، والعمر بحذافيره مغرم وخسارة ، ولما نظرت إلى زوجها المسكين وتذكرت عيشه المرّ ، وطريقه الوعر ، أوشكت أن تبكى ، وألقت يديها على ركبته حناناً ، وهو مثلها حزين مطرق .

وتنهد وقال :

« آه ! ياسارة . . . . . »

وأراد أن يقول شيئاً ، ولكن قطع عليه الكلام رذاذ من السحاب ، ثم انهمرت السماء بوابل ، وهرول الناس فى كل ناحية ، وثبت صموئيل مكانه كالتمثال .

وصاحت به سارة « صموئيل ! الأولاد يا صموئيل ! »

فالتقط اثنين منهما واشتالت الأم اثنين آخرين ، وأسرعوا جميعاً إلى مستظلّ ، واستأنفت الرضيعة العويل .

وناح الطفل « يوسيلى » يصيح :

« جائع ، جائع ! الطعام الطعام ! »

فكشف صموئيل السلة وهنا انكشف له ما حل بها من الدمار ، لقد تحطمت القارورة وغمر اللبن السلة ، وذاب الموز والخبز فى ذلك الطوفان ، أما الأناناسة (وكانت كما يعلم القراء معطوبة) فيعجز عن وصف ما أصابها البيان ، ونظرت سارة إلى البلية فالتهب من غضبها الجنان ، واعتقل اللسان ، لقد منعها الحياء أن تصيح أمام الملأ ، فدلفت إلى زوجها ، وهمست فى أذنه بشدة .

« جعل الله عظامك جذاذاً كهذا الذى تراه بالسلة ، يا نذير الشؤم والبلاء ! »

ولج الصبيان يطلبون الغداء .

وقال صموئيل لامرأته :

« لأذهبن إلى المطعم فأشترين لبناً وخبزاً » .

«ألا يزال لديك دراهم ، لقد حسبتها نفدت جميعاً على تلك النزهة المشؤمة »

« لا يزال معى بنسان » .

« امض إذن ولا تبطىء ، الأطفال المساكين يموتون جوعاً » .

ذهب صموئيل إلى المطعم فاستفهم عن ثمن قارورة من اللبن ورغيف .

فأجابه صاحب المطعم .

« ثمانية بنسات » .

فانتفض صموئيل كأنما لسعته أفعى ، وانقلب إلى امرأته مستخذياً ذليلا .

وقالت زوجته :

« خيراً ، أين اللبن يا صموئيل ؟ »

« لقد طلب ثمانية بنسات » .

« ثمانية بنسات فى قارورة لبن ورغيف ! أظنوك روتشيلد ؟ أيريد هؤلاء المجرمون أن يخربوا بيتنا ؟ بخ ، بخ يا سيدى ! جزاك الله خيراً ! واستعداداً للنزهة القادة ، ان شاء الله ، سنبيع أساس دورنا وفراش نومنا ، فى المزاد العلنى ، وهذا يا سيدى ما تود وتريد »

كل هذا والأطفال فى ضجة و بكاء ، يطلبون مسكة الحو باء .

قال صموئيل متحيراً :

« ولكن ماذا نصنع الآن» .

« نصنع الآن ! نذهب للتو واللحظة إلى الدار» .

فالتقط صموئيل كلمح البرق بضعة من الأطفال ، وغادروا البستان .

وظلت سارة صامتة أثناء العودة ، ولكنها نوهت إليه بما سيكون من مناقشتها إياه الحساب فيما بعد ، فقالت له :

« لأجزينك على حلتى الحريرية التى أتلفها المطر وعلى الأناناسة وعلى اللبن ، وعلى النزهة المباركة الميمونة بحذافيرها ، وعلى حياتى البائسة المنكودة معك ! »

فاجابها صموئيل قائلا :

«وبخى وعنفى كما شئت فعلى الحق أنت ، وأنا الغوى المضلل ، لقد بصرك الله من منهج الرشاد بما خفى على بصيرتى العمياء »

الطبيب

للقصصى الروسى الطائر الصيت إيفان تيرجنييف

مرضت فى بعض أسفارى فآويت إلى نزل واستدعيت طبيباً ، فحضرنى رجل ربعة معروق أسود الشعر ، وبعد أن عالجنى وهم بالرحيل رأيته يتباطأ ويتلكأ وكأن على صدره عبئاً من الأسرار يريد أن يطرحه إلى تفريجاً لغمته وترويحاً لنفسه ، فجلس وشرع يتكلم .

ومن عجب أنك قد تعاشر الرجل وتخالطه وتظل معه على أتم صفاء وألفة السنين العديدة ، ثم لاتجد نفسك أثناء ذلك ميالا ولو مرة واحدة إلى أن تفضى إليه أغلاق صدرك ، أو تفضى إليه بنبذة من خفايا أمرك ، فى حين أنك قد تعثر بالأجنبى الغريب الذى لاصلة لك به ولا ألفة ولم تره قبل توك وساعتك فترى نفسك مدفوعاً بعامل خفى إلى كشف ضميرك له وصب مكنونات صدرك فى أذنيه .

كذلك كان شأن هذا الطبيب الأجنبى معى ، إذ أقبل على فجأة فأفاض فى مسمعى القصة الآتية العجيبة ، قال بصوت ضعيف مرتجف (من أثر استعمال النشوق) .

« وردت على فى منزلى جوف الليل من سيدة أرملة هذه الرقعة : إن

ابنتى فى حالة النزع فأسرع لغياثنا ، وقد بعثنا إليك بمركبتنا ، وجزاك الله خيراً إنه لايضيع أجرمن أحسن عملاً ، لم يكن منى إزاء ذلك سوى ارتداء ملابسى على عجل وتناول شىء من العقاقير والأدوية ثم الهبوط إلى فناء البيت حيث وجدت الحوذى على المركبة فى انتظارى ، فركبت واندفع بنا الجوادان فى طريق جهنمى كله أوعار وأوعاث من برك ومناقع وغياض وثلوج وجداول ، وبعد عشرين ميلاً من هذه العقبات والقحم والمهالك وصلنا أخيراً إلى بيت صغير ، ودلتنا الأضواء المنبعثة من النوافذ على أن القوم كانوا فى انتظارنا ، واستقبلتنى والدة العليلة قائلة « أنقذها يابنى ! نجها ! إنها تموت ! » فقلت لها « صبراً جميلا أيتها السيدة ، لاتهلكى أسى وتجلدى ، أين العليلة ؟ » فقالت لى : « أتبعنى » ثم أفضت بى إلى حجرة صغيرة بإحدى زواياها مصباح ، وعلى سرير بها فتاة فى العشرين من عمرها فاقدة الشعور ، وكانت فى حرارة مشتعلة تتنفس فى مشقة ، — كانت محمومة ، وكان هنالك صبيتان أخريان ، اختاها ، قد بلغ منهما الجزع والروع مبلغاً ، ودمعهما على الوجنات ينسجم ، وقالتا لى : « لقد كانت أمس بحالة جيدة ، وشهيتها للطعام حادة ، وقد شكت الصداع صباحاً ، وفى المساء أصابها بغتة ما ترى » ، فقلت لهن لابأس عليكن ، غيضن من عبرتكن ، وكفكفن من لوعتكن ، ثم دنوت من العليلة ففصدتها وأمرت بوضع لزقة من الخردل ووصفت دواء من مزيج ، وجعلت أثناء ذلك أنظر إليها ، فلا وربك ما رأيت أروع منها صورة ولا أجمل وجهاً ! لقد كدت أذوب حزناً عليها ورحمة لها ! وأفادها والحمد لله علاجى فعرقت وبدأ يعود لها شعورها

فتلفتت حولها وتبسمت وأمرت يدها على محياها . . . . . .

وتحدب عليها أختاها يسألانها كيف حالها ، فقالت (بخير) وأدارت وجهها ، ونظرت إليها ، فإذا هى نامت ، فقلت لأمها وأختيها (أتركتها الآن وحدها) وكذلك خرجنا جميعاً على أمشاط أقدامنا ، وتركنا فى حجرة العليلة خادمة ترعاها ، وأوينا إلى غرفة الجلوس حيث أعطيت من أقداح الشاى والروم ما لا غنى للطبيب عنه فى أمثال تلك الظروف ، ثم سألنى المبيت لديهن تلك الليلة فاجبتهن إلى ذلك ، واستمرت السيدة والدة العليلة تئن وتتأوه ، فقلت لها : ماذا بك الآن ، وما خطبك ، سكنى من روعك ، إنه لا بأس على ابنتك ، لتشفين إن شاء الله ولتعودن أصح ما كانت ، قومى فخذى بنصيب من الراحة ، الساعة الآن الثالثة صباحاً ، قالت السيدة : على أن ترسل إلى إذا حدث حادث ، قلت أجل ولا كان ذلك ، وانصرفت السيدة وابنتاها ، وهيأ لى الخادم فراشاً فى غرفة الجلوس ، فاستلقيت عليه لأنام ولا نوم ، لقد شرد النعاس عن مقلتى ، لفرط انشغالى بالفتاة العليلة وتشبث طيفها بمخيلتى . ولما أضنى جنبى طول التململ وأعيانى نبو المضجع وقلق الوساد ، ثرت من مرقدى وقلت فى نفسى « لأذهبن إلى حجرة المريضه فأتفقد حالها ، فعمدت إليها وفتحت بابها — لشد ما خفق قلبى إذ ذاك وارجفت أحشائى ؟ ونظرت فإذا الخادمة نائمة تغط غطيطاً ، بعداً لها وسحقاً ؟ وإذا العليلة راقدة على جنبها ، وجهها إلى ، وذراعاها مطروحتان كل فى ناحية ، ففتحت عينيها فجأة وحدقت فى وجهى ، وقالت (من هذا ؟ من هذا ؟) فبهت وارتبكت ولكنى ما لبثت أن قلت (سيدتى؟

لاتراعى ولاتفزعى ؟ أنا الطبيب ، وقد جئت لأرى كيف حالك ، فقالت (أنت الطبيب ؟) قلت (أجل) وقد جىء بى من البلد من أجلك ، ولقد فصدتك ياسيدتى و إنى أرجوك الآن أن تنامى ولن يمضى يومان حتى يتم باذن الله شفاؤك ، فقالت : « نعم نعم أيها الطبيب ، لاتدعنى أمت ، من فضلك ، من فضلك ! » .

قلت لها : « لماذا تتكلمين هكذا ، شفاك الله وعافاك ! » ، وقلت فى نفسى : « هل عاودتها الحمى ؟ » ، ثم جسست نبضها ، أجل لقد عاودتها الحمى ، ونظرت إلىّ طويلاً ، ثم أمسكت بيدى وقالت : سأبين لك الآن لماذا لا أريد أن أموت ، نعم سأبين لك سبب ذلك . . . . هذا سر فيما بينى و بينك . . . . نحن الآن وحدنا فى هذه الغرفة . . . . ادن منى . . . . فانحنيت فوقها فحركت شفتيها لصق أذنى ، ومست بشعرها وجنتى ، فدار رأسى دوراناً ، و بدأت تهمس فى أذنى ، بكلمات متقطعة لم أفهم لها معنى ، لقد كانت تهذى ، وتمادت فى هذيانها . تهمس بألفاظ كأنها ليست من اللغة الروسية ، ولما فرغت من همسها عرتها رعشة وطرحت رأسها على الوسادة ثم هددتنى بإيماءة من أنملتها قائلة : وتذكر أيها الطبيب و إياك أن تبوح لأحد ، فسكنت من جأشها وأسقيتها شيئاً من الدواء ، ثم أيقظت الخادمة وانصرفت » .

وهنا تعاطى الطبيب كمية وافرة من النشوق ، ولبث برهة مخدر الأعصاب من أثرها .

ثم استأنف الحديث ، قال :

« ولما أقبل الغد لم تتحسن حال العليلة خلافاً لما كنت أنتظر ، فحرت فى أمرى وأطرقت أفكر ثم أفكر ، وأخيراً عقدت النية على البقاء عند تلك الأسرة ولو أدى ذلك إلى تقصير فى حقوق مرضاى الآخرين ممن كان بحاجة إلىّ وفى انتظارى . . . . وفى ذلك كما تعلم من الخسارة المادية والأدبية ما فيه ، ولكن ماذا كنت أصنع والعليلة فى خطر ، وكنت فضلاً عن ذلك أشعر بأشد جاذبية نحوها ، هذا إلى ما كان قد شملنى من عطف تلك الأسرة ووداده وتولانى من برهم وإحسانهم وما لقيت من مزيد حفاوتهم وألطافهم . . . . ولم تتحسن حالة الفتاة العليلة . . . . وتوالت الأيام وتواترت الليالى . . . . ولكن . . . . هل منصت إلىّ أنت ؟ . . . . (وهنا توقف الطبيب هنيهة) « لا أكاد والله أبصر السبيل إلى إخبارك بما كان ، لا أعرف كيف أسوق الحديث . . . . » (وتعاطى من النشوق ثانياً وسعل ورشف رشفة من الشاى) ليس أحسن فى مثل هذا المقام من الصراحة واختصار الطريق بإعلان الحقيقة بلا تمهيد ولا توطئة ، فقصارى القول يا سيدى أن الفتاة العليلة . . . . كيف أقول ؟ الواقع يا سيدى أنها عشقتنى وشغفت بى صبابة ووجداً ويحتمل أنها لم تعشقنى وأن ما بدا منها لم يكن صبابة ولا وجداً . ماذا أقول وبماذا أصف ما أبدته نحوى من تلك العاطفة والوجدان ؟ (وهنا نكس الطبيب رأسه والتهب وجهه احمراراً) . كلا يا سيدى ، الواقع أنها عشقتنى وهامت بى غراماً وولهاً ، وكانت أريبة ذكية لبيبة على جانب عظيم من العلم والأدب ، ولكنى يا سيدى قد شردت

عن منهج الحديث وأقبلت أتعسف وأتخبط فى مجهل من الغموض والإبهام وأولى لى ولك أن أسلسل الحديث على نسقه ونظامه » .

ثم حسا قدحاً من الشاى واستأنف القول بصوت أخفت ولهجة أسجى وأهدأ .

« ألحت سطوة المرض على العليلة واستفحل الداء وازداد الشر تفاقماً على الأيام ، لست يا سيدى بطبيب فتدرك ما ينتاب الطبيب من القلق والجزع حين يرى المرض قد تصعب وتأبى واستعصى على الأساة طبه وعلاجه ، عندئذ تسوء عقيدة الطبيب فى نفسه وتزول ثقته فى كفاءته وغنائه ، وتعروه بعد عزة المقدرة ذلة العجز و بعد غبطة اليقين مضض الشك ، ويخيل إليه أنه قد نسى من العلوم والمعارف كل ما كان قد حصله وأن المريض قد أساء به ظناً ، والناس جميعاً قد فطنوا إلى اضطرابه وحيرته وارتباكه وأخذوا يرتابون فيه وفى مبلغ كفايته . . . . و يتهامسون عنه و يتغامزون . . . . لله ما أشد ورطته وأحرج مركزه ، إذ يقول فى نفسه ، لا شك أن لهذا الداء دواء ولكن أين السبيل إليه والدليل عليه ؟ ثم يختار نوعاً من الدواء راجياً أن يكون فيه الشفاء فيجر به — كلا ! ليس هذا هو الدواء الناجع — ومن شر البلية أن الطبيب لفرط اضطرابه وقلقه لا يمهل الدواء من فسحة الوقت ما هو ضرورى لحصول نفعه وظهور أثره وثمرته . . . . بل لا يزال يلتقط هذا الدواء ثم ينبذه و يستبدل ذاك من ذلك ، وأحياناً يتناول كتاباً طبياً فيخيل إليه أنه قد أصاب بغيته ، ثم يجرب الدواء ولا فائدة ، وأحياناً يلتقط نوعاً من الدواء اعتباطاً واقتراعاً فيستعمله معتمداً على الله الذى بيده

الشفاء والوصب والموت والحياة ! وفى أثناء ذلك كله يكون العليل على طريقه إلى الفناء ، ومن أعظم دواعى الغم والكمد فى هذه الظروف أن أهل العليل يثقون بالطبيب الثقة العمياء ويشعر هو أنه ليس لهذه الثقة أهلاً ، وينتظرون منه الغياث والفرج وليس على ذلك بقادر ، وكنت أثناء ذلك لا أكاد أغادر غرفة العليلة ؛ لقد جذبت إليها بأشد الروابط وأمتن الأواصر مما تعجز القوة البشرية أن تفصم عراه أو تصرم حباله ، وجعلت أسليها بالقصص والنوادر وألهيها بأفانين الملح والفكاهات وآناً ألاعبها الورق ، ثم أسهر عليها ليلاً ، وكانت أمها تشكر لى ذلك وعينها بالدموع غرقى ، ولكنى كنت أعلم عند نفسى أنى لست لشكرها مستحقاً ، لإنى لم أكن أبذل مجهوداتى هذه عن تضحية ، كلا بل عن أنانية إذ كنت قد شغفت بالفتاة حباً : فلم أكُ أطيق على فراقها صبراً . وكان بالفتاة « اسكندره أندريفينا » من الشغف بى مثل ما كان عندى بها وأكثر ، حتى لقد كانت تأمر أحياناً أن لا يدخل علينا فى خلوتنا أحد ، وكانت تكثر من التحدث إلىّ ومن السؤال — تسألنى عن وطنى ومنبتى ومسقط رأسى وعن أهلى وأقاربى وخلانى ، وكيف نشأت ودرجت وترعرعت ، وفى أى معهد تعلمت ، وأى شهادة أحرزت وكيف رواج حرفتى ونفاق سوقها ، ورسوخ دوحتى فى مغرس الفضل وفرط بسوقها . وكنت أعلم أن كثرة الكلام تضرها ، ولكنى لم أستطع أن أحرم عليها الكلام ، إذ أصبحت نبرات صوتها عندى من ضروريات حياتى كالهواء الذى لا غنى عنه فكنت أنحى على نفسى باللائمة وأقول أية سبيل مهلكة تسلك بالفتاة المسكينة يا مجرم

يا أثيم ؟ » . . . . وكانت أحياناً تقبض على يدى وتديم إلىّ نظرة ملؤها الوجد والصبابة ثم تلفت وجهها وتزفر زفرة حرى مؤججة وتقول: « لله أنت ما أشد عطفك وحنانك ، وما أكثر برك وإحسانك إنك لست كمن أعهد من الأهل والخلان ، والصحب والجيران ، إنك بديع زمنك ونسيج وحدك ، لم لم أوفق إلى معرفتك قبل الآن ؟ » فأقول لها ، سيدتى اسكندرة أندريفينا هدئى روعك ، لا تستثيرى أعصابك : سيمتعك الله بالصحة والعافية قريباً ، وكانت تأبى أن تتناول الدواء إلا من يدى . . . . فكانت ترفع بدنها الواهن المضنى بكل مشقة معتمدة على ذراعى ثم تتجرعه من راحتى وترنو إلىّ طويلاً . . . . وإذ ذاك تتفتت كبدى وينفطر فؤادى . . . . وفى خلال ذلك كله كان الداء يزداد منها تمكناً وفيها تغلغلاً ، وأقول لنفسى ، واحر قلباه ، ستموت حقاً لا ريب فيه ولا مشاحة ، ولا أكذب الله يا سيدى لوددت أن أموت فأقبر وتسلم هى وتبرأ ، ولو يقبل الفداء لفديتها بأهلى ومالى ونفسى ولو استطعت لحبأتها من غائلة المنون بين جوانحى وفى سويداء مهجتى .

يودون لو خاطوا عليك جلودهم ولا تدفع الموت النفوس الشحائح

« وفى خلال ذلك كانت أمها وأختاها يرقبنى و يستجلين شواهد الحال من عينى . . . . وقد بدأت ثقتهن بى تضمحل .

« فى ذات ليلة كنت جالساً مع العليلة ولم يكن فى الغرفة معنا سوى الخادمة وكانت نائمة ، وكانت المريضة فى تعب شديد منذ أول الليل لم تبرح تتقلب على فراشها وتتململ ، ثم أخذها النعاس بعد ذلك ، وكنت

جالساً إلى جانبها تلعب بى بوادر الكرى ثم أخذتنى عينى فأغفيت ، وما لبثت أن شعرت بشىء يمس خاصرتى ، فالتفت فإذا العليلة اسكندرة أندريفينا ، تحملق فى وجهى . . . . وهى مفترة الشفتين ملتهبة الخدين ، فقلت لها ما بالك ؟ ، قالت : ترانى سأموت أيها الطبيب ؟ قلت : معاذ الله يا سيدتى ، قالت : كلا أيها الطبيب لا تقل إنى سأعيش . . . . لا تقل ذاك . . . . واها لى ؟ . . . . ليتك تعلم خفية أمرى . . . . أنصت إلىّ ! ناشدتك الله لا تكذبنى ولا تخدعنى ، أما لو علمت علم اليقين أنى سأموت . . . . إذن لأطلعتك على كل شىء وحدثتك بكل شىء قلت لها ، على رسلك يا اسكندرة ولا تهيجن أعصابك ، قالت ، إصغ إلىّ . . . . إنى لم أكن نائمة كما حسبت ولكنى كنت أسترق إليك النظر . . . . فنبئنى بورك فيك عن حقيقة حالى ، وإنى أستحلفك بكل ما هو مقدس فى الوجود أن تصدقنى ، فإن على كلمة الحق التى ستفوه بها يتوقف أمر من أخطر أمورى ، فخبرنى أيها الطبيب هل أنا فى خطر ؟ ، قلت لها ، ماذا عسى أن أخبرك به يا اسكندرة أندريفينا ؟ قالت ، سألتك بالله إلا ما خبرتنى قلت ، ما كنت لأكذبك يا سيدتى ، إنك حقاً لفى خطر ، ولكن رحمة الله واسعة ، قالت وقد أضاء وجهها على أثر هذا الجواب وأشرق كأنما قد سرها موقعه ، سأموت ، سأموت ، الحمد لله ! ، فتملكنى الرعب وظهر علىّ أثره ، فقالت ، لا ترع ، لا ترع ، لست من الموت بخائفة ، حبذا الموت وحبذا قدومه ، ثم نهضت بغتة واتكأت على مرفقها وقالت ، الآن . . . . الآن

يمكننى أن أحدثك بكل شىء ، الآن أخبرك أنى شاكرة لك حسن صنيعك وإنى . . . أحبك ! ، فحدقت إليها النظر كأنما أصابنى جنون ، لشد ما راعنى منها هذا الاعتراف وهالنى ، وأعادت هى ، أتسمع ما أقول ؟ إنى أحبك ! قلت لها مغالطاً ، سيدتى ، أنا لم أصنع ما أستحق عليه منك كل هذا . . . . قالت إنك لا تفهم غرضى ، إنك لا تفطن إلى مرمى كلامى . . . . ثم مدت ذراعيها نحوى وهصرت بفودى رأسى وقبلتنى ثلاثا . . . . لقد كدت أصرخ من هذا الموقف . . . . وجثوت على ركبتى ودفنت رأسى فى ثنايا الوسادة ، ووجمت هى ، لا تتكلم ، ولكن أناملها كانت تعبث بشعرى ، وأصغيت إليها فسمعت صوت بكائها ، فشرعت أنهنه من عبرتها وأسكن من لوعتها ، قائلاً : « اربعى عليك » وحاذرى أن توقظى الخادمة ، وحسبك يا اسكندرة أندريفينا ، لا يطلعن عليك أهلك وأنت على هذه الحال تفوهين بمثل هذه الكلم .

قالت : « وماذا يهمنى اطلاع الأهل والأقارب والاخوان بل الناس جميعاً على حالى ، وماذا أخاف وأخشى وإنى على حافة القبر ، أبعد الموت منزلة أدارى عليها الناس وأداجى ، وماذا تخاف أنت وتخشى ؟ . . . . ارفع رأسك ، فيم استكانتك واستخذاؤك ، بل أراك لاتحبنى ، فإن كان ذلك كذلك فهب لى خطيئتى واعف عن زلتى ، قلت لها « ماذا تقولين يا اسكندرة أندريفينا ، يمين الله إنى أحبك » فحملقت فى عينى ، وفتحت ذراعيها وقالت « إذن ضمنى إلى صدرك » ثم طوقتنى بذراعيها ضماً والتزاماً

وأبت إطلاقى ، وقلت لها « مهلاً ، اسكندرة أندريفينا ، ابق على وعلى نفسك ، قالت وماذا عسى أن أخاف أو أحذر ؟ ألست راحلة إلى دار البقاء عاجلا ؟ ألست هالكة بعد هنيهة » وما برحت تردد هذه الكلمة « وأما لو علمت أنى مرتدة إلى الحياة و إلى سالف منزلتى الأدبية لخجلت أن أصنع ما أصنع الآن . . . . . ولكنى ميتة . . . . . » قلت « ومن قال إنك ستموتين ؟ » قالت « دعك من هذا التمويه ، لاتخدعنى فى نفسى » بل أراك لاتحسن الخداع ولا تسبك الكذب ، انظر إلى وجهك فى المرآة تر الحق ناطقاً على صفحته ، إنى ألمح نذير الحمام فى عينك » قلت لها « بل لتعيشن بإذن الله يا اسكندرة أندريفينا ، ولأشفينك من علتك ، ولأتزوجن بك ، وليثلجن صدر أمك بقراننا السعيد ولتقرن عينها » قالت « كلا بل لأموتن عاجلاً ، لقد وعدتنى ذلك وكان وعدك مقضياً ، وعلى مثل هذه الحال قضيت معها الليلة ، وانصرفت مطلع الفجر ، ولما عدت إليها ضحوة لم أكد أعرفها لشدة ما نكر المرض من صورتها رحماك ربى » لقد رأيت الموتى تدفن أحسن منها حالاً ومنظرا ، وتا لله لا أدرى كيف لم أمت من هول ما لقيت فى تلك المحنة ، ولا كيف استطعت أن أجتاز تلك الفترة التى كانت كبعض أودية الجحيم ، وتباطأ أجل الفتاة أربعة أيام وثلاث ليال بعد ذلك ، وأية ليال ! ماذا بثت إلىّ خلالها من نجوى الغرام والصبابة وفى الليلة الأخيرة كنت جالساً إلى جانبها أدعو الله مبتهلاً أن يتوفاها ويتوفانى معها ودخلت أمها بغته وكنت أنبأتها باضمحلال الأمل فما هو إلا

أن بصرت العليلة بامها حتى قالت ولقد أحسنت صنعا إذ جئت فى هذه اللحظة انظرى إلينا يا أماه ، إنى أحبه ويحبنى ، وقد تواعدنا على الزواج وتعاهدنا ولم يبق إلا رضاك وقبولك ، قالت الأم ، ماذا تقول ؟ ، فجمدت مكانى وكدت أصعق ، ثم قلت وهذا من هذيان الحمى ، ولكن الفتاة قاطعتنى قائلة مه ! مه ! لقد حدثتنى خلاف ذلك آنفا ، وقد أخذت خاتمى فما معنى هذا الرياء . . أتخاف والدتى وإنها لكريمة بارة ، حاضرة الصفح واسعة الغفران ، هذا وإنى لراحلة ، وما كنت لأكذب على الله وأنا على وشك لقائه ! أعطنى يدك ! »

لا أطيل عليك القول ، لقد أسلمت الروح فى غد تلك الليلة ، أسكنها الله فسيح جناته .

« وقبيل وفاتها سألت أهلها أن ينصرفوا ويتركونى معها فى خلوة ، وقالت لى « اغفر لى ما أتيت إليك من زله واعزه إلى العلة ، ولكن تيقن أنى لم أحبب أحدا قط كما أحببتك . . . ، لا تنسنى احتفظ بخاتمى »

هنا أدار الطبيب وجهه ونظرت إليه فإذا هو يبكى .

فأخذت يده فى يدى مواساة وعزاء .

١٤٥٢ / ١ / ٤ / ١٩٤٥

A.U.B. LIBRA

DATE DUE

AUB LIBRARY
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
00469921